هيثم موسى

DEMONOLOGY

Took place in Essex County, 1969

رواية

ديمنولچي

حدث في مقاطعة إسكس عام ١٩٦٩

ساحر الكتب

ديمنولجي

حقيقة ما حدث في مقاطعة إسكس عام ١٩٦٩

إبهار
للنشر و التوزيع

+201099197450
www.Ebharbook.com
Info@ebharbook.com

اسم الكتاب: ديمنولچي (حقيقة ما حدث في مقاطعة إسكس عام ١٩٦٩)
التصنيف: رواية
اسم الكاتب: هيثم موسى
تصميم الغلاف: وحيد محمد
المراجعة اللغوية: منى القاضي
الإخراج الفني: ساندي شريف إبراهيم
رقم الإيداع: 27437
الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6913-18-9

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

وأي اقتبـاس أو تقليـد أو إعادة طبـع أو نشـر دون موافقة كتابيـة، يُعرِّض صاحبه للمساءلة القانونية. أما حقوق الملكية الفكرية والآراء والمـادة الـواردة في الكتـاب فهي خاصـة بالكـاتب فقط لا غير.

هيثم موسى

ديمنولجي

حقيقة ما حدث في مقاطعة إسكس عام

١٩٦٩

إبهار
للنشر و التوزيع

- إهداء-

****

إلى أحب الناس إلى قلبي (عائلتي الكبيرة).

المستشار/ محمد موسى، الأب الذي لا يُعوّضْ.

د/ عواطف السويسي، حنان الأم الذي لا ينضب.

د/ شروق موسى، الأخت الكبرى بكل ما تحمله الكلمة.

أ/ مرام موسى، أحن وأطيب من فينا.

لوحة تم رسمها في القرن الخامس عشر ما بين عام ١٤٧٠- ٧٥ للرسام الشهير مارتن شونغاور - Martin Schongauer ، بعنوان The Temptation of St. Anthony، رسم مارتن شونغاور هذا المشهد الشعبي في فن القرن الخامس عشر، وفيه تجوب الشياطين حول القديس أنطونيوس الكبير وتحيطه من كل جانب بينما يقاوم القديس هجماتهم.

المقدمة

****

علم الشياطين ""Demonology هو العلم المَنُوط به تعريف البشرية بماهية المخلوقات الشيطانية التي تعيش في عالم الجحيم، ويضم هذا العلم قوائم من (الشياطين، والخدام الجهنمية) والمسماة على مرّ العصور والأزمنة، وهى تتعدى الثلاثة آلاف مخلوقٍ، منهم من لعب دورًا في أنظمة الأديان الكبرى مثل (الإسلامية، المسيحية،واليهودية) وأيضًا غير السماوية مثال (الآشورية، البوذية، والهندوسية) كذلك الشياطين التي تظهر في أساطير وفلكلوريات غالبية المجتمعات القديمة مثل (اليونانية، اليابانية، المايا، والسكوثيون) ذلك على سبيل المثال لا الحصر، وقد ساهم هذا التعدد في

اختلاف وصفها، فهناك من يصفها بأنها "كيانات طيفية" قادرة على تملك واستحواذ الجسد البشري، وآخرون يصفونها بأنها ملائكة سقطت من النعيم، تم نفيها إلى الجحيم لتسكن به كعقابٍ لها، والبعض الآخر وصفها بأنها مخلوقات مادية خُلقت لتعيش في الجحيم كعالم موازٍ للأرض والنعيم، ومن المثير للاهتمام أن تلك الشياطين يتم النظر إليها في الغالب على أنها كائنات خارقة للطبيعة ومتأصلة في الشر، تعمل كالوكيل الأدنى للشيطان الأكبر ولها العديد من المظاهر، وتعمل تحت أسماءٍ عدة ولأغراضٍ مختلفة، وهي كائنات غير نقية وغير قابلة للتغيير، وظيفتها هي إحداث (الفوضى، والخراب، والمرض، والموت) وهي العدو اللدود للبشر، فلدى الشياطين تاريخ حافل بالتدخل في شئون العالم المادي للبشر وحيواتهم، تتصرف فيه كالمحتالين وتخلق اضطرابات مزعجة، وغالبًا ما اجتمع وصف

الشياطين بأنها كائنات قبيحة وبشعة، حيث أن تلك الصفات كانت في نظر البشرية دائمًا هي الصفات المساوية للشر، وقد أرجح "علم الشياطين" أيضًا بأن لمخلوقات هذا العالم تصنيف قيادي يتبع تسلسل هرمي، استنادًا إلى الأقوياء من العائلات الحاكمة، حيث يعمل تحت إمرتها جحافل من الخدم لخدمتها لأنها هي نفسها خاضعةٌ لمن أعلى منها، وقد أدى هذا التسلسل لصراعاتٍ لا حصر لها، بين مخلوقات هذا العالم للسيطرة عليه.

---

*المقدمة تم اقتباسها وترجمتها من:

- كتاب " the Encyclopedia of Demons and Demonology " للكاتبة Rosemary Ellen Guiley.
- كتاب "Enclopedia of demons in world of religion and cultures " للكاتبة Theresa Bane.

الفصل الأول

"منزل آل جرين"

في منطقة "دريك فالي" ببلدة "إيبينج" بمقاطعة "إسكس"، تصطف المنازل الخشبية البيضاء ذات الأسقف الهرمية بجانب بعضها البعض، وفي أحد تلك المنازل وبالتحديد في غرفة النوم في الطابق الثاني، أفاق الرجل من النوم على صوت الرعد يضرب بقوةٍ في السماء التي ينيرها البرق من حينٍ لآخر، حاول أن يغط في نومه مجددًا ولكنه عجز عن ذلك، كان صوت زجاجِ شرفة الغرفة يضطرب كل بضع ثوانٍ مُصدرًا أزيزًا يؤرق السمع، فاعتدل في جلسته وقد تذكر حينها الخبر الذي تم إذاعته في المذياع البارحة عن العاصفة التي سوف

تضرب المنطقةَ اليوم، فتقلَّب جانبًا بحركةٍ تلقائية لينظر إلى يمينه نحو الساعة المعلقة على الحائط، ليجد أن الساعة قد جاوزت الواحدة والنصف صباحًا، ثم عاد ليلتفت إلى يساره ليجد زوجته تغط في نومٍ عميق كعادتها، فعاد ليريح رأسه على الوسادة ليحاول النوم مرةً أخرى، ولكن لم تؤتِ محاولته ثمارها، لم يكن السبب الرياح أو صوت الرعد الذي يصدع في الأفق، وليست حتى ومضات البرق القادمة من زجاج الشرفة لتشع في الغرفة كل بضع ثواني، إنه يعلم جيدًا ما الذي يؤرقه.

بعد بضع دقائق من تمدده على فراشه بلا حراك وهو يقظ العين، الذهن والحواس، قرر القيام ليدخن السجائر في شرفة الغرفة، نهض من فراشه على أطراف أصابعه حتى لا يوقظ زوجته من جانبه، ثم توجه نحو خزانة الملابس ليفتحها في هدوءٍ ويدس يده في جيب معطفه ليُخرج منه علبة السجائر وقداحة، ثم توجه إلى شرفة الغرفة ليفتح بابها الزجاجي بتروٍ ليدلف إليها ويقفله سريعًا من خلفه، وقف الرجل ينظر في هدوءٍ إلى حديقة المنزل من أمامه لثوانٍ، ثم أخرج إحدى السجائر وبدأ في محاولته المضنية في إشعالها رغم الرياح العاتية حتى نجح في ذلك، ولكن الغريب في الأمر، أن عينا الرجل لم تكونا تنظران إلى موضع يده الممسكة بالسجائر والقداحة طوال الوقت،

بل كانت عيناه منشغلتين بأمرٍ آخر، كانت عيناه تنظران يمينًا ويسارًا تتفحصان الحديقة من أمامه بحثًا عن شيءٍ ما هو وحده يدركه جيدًا، أخذت عيناه تتفحصان محتوى الحديقة في هدوءٍ، ها هي الطاولة الخشبية بمقاعدها تسكن فوق العشب الأخضر، ها هي المشواة موضوعةً في ركن الحديقة بجانب بضع شجيراتٍ التي تتوسطها عدد من الأَجَمَةُ، ولكن مهلًا! هناك شيء غريب في تلك الأَجَمَةُ، حاول الرجل امعان النظر والتمعن بها في صعوبةٍ، فقد كانت ظلمة الليل الحالكة تغلف المكان، ولكنه يكاد يقسم أن هناك شيء يختبئ بداخلها، كيان ضخم غير مألوف لم يستطع تبين ملامحه، أو هيئته بعد.

- لا فائدة من الاختباء، لقد رأيتك أيها الجبان!

صاح الرجل بأعلى صوته وهو ينظر في غضبٍ صوب الكيان القابع في الظلام، والذي يبدو أنه قد أدرك أنه لا جدوى من اختبائه بعد الآن، فقد فضح الرجل أمره.

اتسعت عينا الرجل رُعبًا وهو يبصر عينًا صفراء اللون تسطع في الظلام من وسط الأَجَمَةُ، ليقم كيانٌ ضخمٌ من جثوته ويقف في شموخٍ، ثم تقدم للأمام مظهرًا نفسه للعلن، كانت ملامح المخلوق غير واضحة كليًا مختلطة بسواد

الليل الذي لا يختلف عن لون جسده في شيءٍ، تظهر فقط هيئته كل بضع ثواني حينما يضيء البرق السماء كاشفًا إياها، إنه مسخًا دميم أعور العين، له فتحتي أنف بلا منخار، تخرج منهما أنفاسه الساخنة في غضبٍ وهو يُكشر عن أنيابه الناتئة من فمه، لا يسترعيه ذلك اللعاب المتساقط منه كحيوانٍ مسعور، منصب النظر نحو شيءٍ واحد فحسب، إنه الرجل الذي يقف في الشرفة.

- سوف تفشل مثل من سبقوك، أنت لن تستطيع قتلي أيها المخلوق التعس!

يبدو أن كلمات الرجل المليئة بالتحدي قد أشعلت ثورة الغضب في هذا المخلوق، فبدأ يعلو صوت زمجرته أكثر، بينما جحظت عينه الواحدة حتى كادت تبرز من محجرها، ثم بدأ يخطو للأمام استعدادًا لينهي المهمة التي جاء من أجلها، فتقدم وهو رافعًا رأسه نحو الرجل واضعًا إياه صوب عينيه، ثم أطبق ببراثنه في الجدار الخشبي من أمامه ليبدأ في الصعود للأعلى قاصدًا الشرفة، كان قلب الرجل حينها يضرب داخل صدره كالمطرقة من شدة الخوف، وهو يشاهد إثر ضوء البرق صعود هذا المخلوق نحوه لثوانٍ قبل أن يعود ليختفي في جنح الظلام مجددًا، حتى جاءت اللحظة الأخيرة التي

لمح فيها المخلوق، وهو متشبثًا في الحائط بجانبه على بعد بضعة أمتارٍ يستعد للوثب نحوه واقتلاع رأسه من مكانها.

- هلم، ها أنا ذا أمامك!

قالها الرجل وهو يغمض عينيه متقبلًا مصيره، الذي لم يستطع الهرب منه يومًا، مهما كثرت محاولاته.

- مع من كنت تتكلم يا عزيزي؟

التفت الرجل خلفه سريعًا ليجد زوجته تقف على عتبة الشرفة وعيناها يغلبهما النعاس، فعاد ليلتفت ثانيةً إلى موضع المخلوق، ولكنه لم يجده حينها، أخذ الرجل يتلفت بوجهه في أرجاء الحديقة باحثًا عنه، لكن كان المخلوق قد توارى بالفعل عن الأنظار وقد لاذ بالفرار، ولم يخلف له أثر.

- لماذا تقف في الشرفة في هذا الطقس السيء؟!

سألته زوجته مجددًا بتعجبٍ وقد تقدمت لتقف بجواره، وتنظر هي الأخرى نحو الحديقة بنظراتٍ ناعسة، وقد بدأت تدلك ذراعيها إثر برودة الطقس، والرياح العاصفة من حولهما.

- لا أحد يا عزيزتي، كنت أُحدث نفسي قليلًا، ولكن يبدو أن علو صوتي قد أيقظك.

قالها الرجل وهو يلقي السيجارة بعيدًا لتطير في مهب الريح، فأمسكت زوجته بيده لتصحبه إلى الداخل وهي تحاول أن تتمسك بمعطف النوم خاصتها جيدًا جراء الرياح الشديدة، ثم التفتت جانبًا لتنظر إلى السماء وهي تحدث نفسها في تهكمٍ:

- الرجال وسجائرهم! لا يهم الوقت أو الطقس، إنها السجائر اللعينة!

عاد الرجل للنوم في فراشه بينما ارتمت زوجته على صدره، وقد بدأت تستسلم للنعاس مجددًا، بينما ظل هو ينظر إلى السقف من فوقه، وباله منشغلًا بأمرٍ واحد، متى سوف يأمن على حياته دون أن يعيش كل يوم له وكأنه الأخير!

****

"الطبيب بريمان، للأمراض النفسية والذُهانية"

في جاده "سكوتنجهام" ببلدة "إيبينج" بمقاطعة "إسكس"، وقف رجل ضخم الجثة يرتدي معطفًا جلديًا طويل فوق رصيف أحد الشوارع،

يتفحص بنظره منزلًا مُهيبًا يطغو عليه تصميم الطراز الإنجليزي العريق، متواجد أمامه لافتة استقبال صغيرة، مُدون عليها رقم المنزل، أخذ الرجل يتفحص رقم المنزل لثوان، ثم عاد ليحني رأسه وينظر إلى العنوان المكتوب في الورقة التي يحملها في يده، وبعد أن تأكد من تطابق العنوان أثنى الورقة ثم أعادها إلى جيب معطفه، نظر نحو يمينه ويساره في توجُّسٍ، خشية أن يميزه أحد المارة ويتعرف عليه إن رآه، ثم أخذ نفسًا عميقًا ليتقدم نحو المنزل مسرع الخُطى، ويصعد أولى الدرجات التي تؤدي إلى الباب خاصته.

تجمدت يده المترددة في الهواء لوهلةٍ قبل أن تطرق الباب وهو ينظر إلى اليافطة التي تتوسطه، "الطبيب هانسل بريمان، طبيب الأمراض النفسية، والذهانية".

يبدو أن قراءة ذلك العنوان قد حسمت التردد الذي كان يساوره في قرارة نفسه، فعدل عن استئناف ما كان ينوي فعله والتفت بهدوءٍ عائدًا من حيثما أتى، ولكن مع أولى خطوات أقدامه المبتعدة عن المكان، وجد الباب يُفتح من خلفه.

- بروفيسور هادسون!

تمهل الرجل في خطاه بعد سماعه لذلك الصوت الذي يناديه، فالتفت خلفه ليبصر رجلًا في الخمسينات من عمره، هزيل الجسد، أشيب الشعر، ذو لحية بسيطة، يرتدي نظارةً طبية وبزة أنيقة يقف ممسكًا بباب المنزل من الداخل، فأجابه الرجل مبتسمًا:

- مرحبًا حضرة الطبيب.

فتح "الطبيب بريمان" الباب أكثر ليستقبل ضيفه والابتسامة على وجهه، وهو يحدثه بترحابٍ:

- لقد رأيتك من النافذة وأنت قادم، تفضل بالدخول.

اعتلى وجه "بروفيسور هادسون" الحرج بعد أن شعر بأن الطبيب قد حاصره، ولا سبيل للتراجع الآن، فتقدم بخطواتٍ مُسْتَحْيَة إلى الداخل ثم أغلق الطبيب الباب من ورائه، محدثًا إياه:

- مرحبًا بك في منزلي المتواضع.

ابتسم له هادسون ممتنًا ليستأنف الطبيب بريمان حديثه وهو يشير إلى غرفة تتواجد على يمينه ملصق عليها لافتة مستطيلة ذهبية اللون مكتوب بها "غرفة الكشف" قائلًا:

- لندلف إلى عيادتي المتواضعة.

ثم تحرك الطبيب ليتبعه بروفيسور هادسون إلى الداخل، ليجول بنظره داخل غرفة الكشف لأول مرة، كانت الغرفة جدرانها ناصعة البياض، ذات ضوءٍ قوي ينبض بالحياة في المكان، وعلى الجدار المقابل لباب الغرفة كانت هناك الكثير من شهادات التقدير العلمية المعلقة به وتتوسطها صورة فوتوغرافية متوسطة الحجم "للطبيب بريمان" وبجواره يقف طبيب آخر، وخلفهما إحدى المصحات الضخمة، بينما يتواجد بجوار النافذة الوحيدة للغرفة مكتب خشبي وبجانبه وِحدة أدراج متوسطة الحجم، وفي مواجهة المكتب مقعدان، ثم نظر صوب الجانب الآخر للغرفة ليبصر مضجعًا ضخمًا مخملي الملمس، تبعث رؤيته على الاسترخاء، كان يختلف عن أمثاله بأن تصميمه يهدف للاستلقاء عليه وليس الجلوس، وبجوار ذلك المضجع كان يتواجد مقعد خشبي، وعلى يمينه منضدة خشبية صغيرة موضوعًا فوقها جهاز تسجيلٍ للشرائط الصوتية.

لم تمر ثوانِ حتى أفاق هادسون من تأمله الفضولي للغرفة من حوله على تحرك الطبيب بريمان نحو وِحدة الأدراج وهو يقول:

- هل تعلم أن سبب جعل محل عملي يتواجد بمحل سكني هو لنفس السبب الذي جعلك تفكر في المغادرة منذ قليلٍ؟!

تحرك بروفيسور هادسون ليجلس على أحد المقعدين المواجهين للمكتب، وقد اكتفى بالنظر في صمتٍ نحوه لا يدري ما يقول، فاستأنف الطبيب حديثه:

- أنا أعلم أن غالبية مجتمعنا ما زال لا يؤمن بهذا النوع من الطب، ويوصم كل من يلجأ إليه بالجنون، ولهذا ارتأيت أن أرفع الحرج عن مرضاي وقررت أن أضم عيادتي إلى منزلي المتواضع والذي استقبل فيه الكثير من أصدقائي أيضًا، وبهذا الأمر لن يستطيع أي شخص أن يميز إذا ما كان الشخص الذي يطرق بابي هو صديقًا لي، أم مريض لدي.

ألقت كلمات الطبيب بريمان بعض الطمأنينة في قلب بروفيسور هادسون الذي ما زال جالسًا على مقعده في هدوءٍ، ليفتح الطبيب بريمان بعد ذلك وِحدة الأدراج لتظهر عشرات الملفات الورقية المصطفة خلف بعضها، فبدأ بتفحصها بنظره، بينما كانت أنامله تداعب الملفات الواحد تلو الآخر، حتى تمهلت عند ملفٍ محدد ليدقق فيه لوهلةٍ ثم قام بإخراجه من الدرج، وبدأ بالالتفاف ليتحرك نحو المقعد المواجه لمقعد بروفيسور هادسون بخطواتٍ بطيئة تكسبه بعض الوقت ليتفحص الملف الذي في يده في تروٍ، وحين وصل

للمقعد المنشود جلس وأقفل الملف الذي في يده ليضعه جانبًا فوق سطح المكتب، وهو ينظر إلى بروفيسور هادسون ويحدثه قائلًا:

- لقد تفاجأت بمهاتفتك لي البارحة، فلا أخفي عليك، أنا لم أتوقع أن تطلب مقابلتي!

نظر بروفيسور هادسون بطرف عينيه جانبًا على الملف الورقي المطوي على المكتب، والذي كان مكتوب عليه بخطٍ أنيق "بروفيسور هادسون" ثم بدأ الحديث ليجيبه:

- لا أخفي عليك، أنه حتى أنا لم أكن أتوقع ذلك أيضًا.

كانت ملامح الحزن تتجلى على وجه الرجل بشكلٍ يغنيه عن التعبير، فعاد الطبيب بريمان للحديث:

- أظن أنه لدينا العديد من الأمور العالقة التي نحتاج لمناقشتها، ولكن علينا قبل ذلك معالجة ما أصابك من اكتئابٍ جراء فقدانك لزوجتك، فملازمة الاكتئاب للشخص لفترةٍ طويلة له عواقب وخيمة، ويجب أن نتجنب الوصول إليها.

حينها تحدث بروفيسور هادسون بصوتٍ معذب يملأه الحزن:

- لقد ماتت "مارج" وتركتني لأواجه الحياة بمفردي!

فتحدث إليه الطبيب بريمان والأسف على وجهه، مواسيًا إياه:

- لقد قابلت زوجتك مرة واحدة فحسب، ولكنني عرفت حينها كم كانت تحبك، أنا في شدة الأسف لفقدانك إياها، ثم أخذ نفسًا عميقًا ليردف: والآن دعني أحدثك عن الخطوة العلاجية التالية التي سوف نقوم بها، فبالنسبة لحالات الاكتئاب الشديد، فأفضل وسيلة متبعة، هي العلاج عن طريق "التنويم بالإيحاء"*.

اعترى وجه بروفيسور "هادسون" القلق وكاد أن يبدأ بالحديث...

ولكن لاحظ الطبيب بريمان ذلك فاستأنف في عجالةٍ:

- دعني في البداية أشرح لك ما هو التنويم بالإيحاء، ومتى نلجأ إليه كأسلوبٍ متبع للعلاج في حالات الاكتئاب، ثم اعتدل في جلسته، وقد بدأ بالشرح بطريقة أشبه بالمحاضرة قائلًا:

---

* التنويم بالإيحاء: هو الاسم العلمي لعملية "التنويم المغناطيسي" بينما الأخير هو الأكثر شيوعًا للعامة.

- الغاية من التنويم بالإيحاء هي جعل المريض يصل إلى حالة من الهدوء والاسترخاء الجسدي والذهني، بعيدًا عن شعور الاكتئاب، وحينها يكون قادرًا على مناقشة أحاسيسه ومشاعره دون أن يصاب بالقلق أو التوتر، ثم استطرد حديثه: وحينها أيضًا تكون في حالة ذهنية هادئة ومسترخية، فيصبح العقل الباطن أكثر مرونةً لقبول النصائح والمقترحات، والاستجابة لها للتخلص من العوامل التي تزيد من تفاقم مشكلة الاكتئاب، كالتحكم في الألم، والضغوط، والتوتر النفسي، ومشاعر القلق التي تصاحبه أيضًا، والتخلص من الأفكار السلبية، فهذه الأشياء جميعها تزيد من حدة الاكتئاب، واليوم سوف أخضعك للجلسة الأولى من العلاج، عن طريق التنويم بالإيحاء.

- نظر إليه بروفيسور هادسون مستفهمًا:

- الأولى؟!

فأجابه الطبيب بريمان ضاحكًا:

- بروفيسور هادسون، أنا لست بساحرٍ، لكي اجعل الاكتئاب يختفي في ليلةٍ وضحاها، فالاكتئاب ليس بمشكلةٍ طفيفة، وسوف يتطلب علاجه العديد

من الجلسات، لكي تتخلص منه نهائيًا، ثم أشار بيدهٍ صوب المضجع الضخم وهو يحدث بروفيسور هادسون:

- والآن تفضل معي.

قام الاثنان للتحرك نحوه ليجلس بروفيسور هادسون عليه، بينما جلس الطبيب بريمان على المقعد من جواره، ليلتقط قلمًا ومدونةً ورقية صغيرة موضوعان على المنضدة بجوار جهاز مسجل الشرائط الصوتية ثم ضغط على زر التسجيل برفقٍ ليبدأ أولى جلساته، ولضمان نجاح عملية التنويم وجب عليه التأكد من عدم وجود أي موانع قد تؤثر على المريض وتعيق نجاح عملية التنويم سواء على الوجه العام، أو الوقت الحالي للجلسة، ولذلك قام بدأ بتوجيه وابلًا من الأسئلة لبروفيسور "هادسون" خرجت من فمه بطريقةٍ آلية:

- هل تدخن السجائر؟

- لقد أقلعت عنها منذ وفاة زوجتي.

- هل تتناول أي مهدئاتٍ؟

- لا.

- هل تتناول أي أنواعٍ من المخدرات؟

- بالطبع لا.

- هل تشعر حاليًا بالجوع أو العطش، أو أي ألمٍ؟

- لا.

- هل تريد الذهاب لقضاء حاجتك؟

- لا، لا أظن.

انتهى الطبيب بريمان من تدوين بعض الملاحظات، ثم أقفل المدونة ووضعها على المنضدة، ثم بدأ حديثه مجددًا:

- والآن يجب أن تعرف شيئًا هامًا، من أجل نجاح عملية التنويم بالإيحاء يتوجب عليك أن تضع ثقتك الكاملة بي، يجب أن تسمح لعقلك بالاستسلام لي، والانصياع لما سوف أقوله.

حينها، وجه بروفيسور هادسون سؤالًا لبريمان خرج منه بطريقةٍ عفوية:

- هل أنت واثق مما تفعله؟

ابتسم الطبيب بريمان حينها له وهو يجيبه:

- لا داعي للقلق برفيسور هادسون، فأنا ازاول مهنتي كطبيب للأمراض (النفسية، والذُهانية)* منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا، وقد تتلمذت في صغري على يد أمهر تلامذة الطبيب "سيغموند فرويد"*، كما أني من أشهر مطبقي التنويم من بين قرنائي الحاليين.

صمت للحظة قبل أن يستطرد والابتسامة على وجهه:

- لذلك لا داعي للقلق، فأنت في يدٍ أمينة.

القت كلمات الطبيب بريمان بعض الطمأنينة في قلب بروفيسور هادسون ولكنها لم تكن كافية لازاحة علامات القلق المتجلية على وجهه، ولكن بسماعه للكلمات التالية تغير حاله كليًا!

*الأمراض النفسية: هي عبارة عن خللٍ في الصحة النفسية، أو السلوكية، والعاطفية للمريض، نتيجة التعرض والاحتكاك بأحداث الحياة، دون حدوث خلل عضوي، مُسبب لذلك مثل (الاكتئاب، والرهاب، ونوبات الهلع، الخ).

*الامراض الذُهانية أو العقلية: هي عبارة عن خلل في كيمياء المخ، أو الموصلات العصبية، يؤثر بشكلٍ كبيرٍ على وظائف بعض الأعضاء، أو الحواس؛ ليسبب للمريض في أغلب الأوقات الانفصال عن الواقع ليصبح خطرًا على نفسه، وعلى من حوله، مثل اضطراب تعدد الشخصيات، الضلالات والاوهام.

* سيغموند فرويد: طبيب أعصاب نمساوي الجنسية، أسس مدرسة (التحليل النفسي، وعلم النفس الحديث).

- لقد كانت زوجتك تثق بي بما يكفي لتأتمنني عليك، ولذلك أريدك أن تضع ثقتك في كما فعلت زوجتك من قبلك!

كانت كلمات ذلك الطبيب النفسي احترافية للغاية، توغلت إلى عقل بروفيسور هادسون بسهولة لتزيل أي شكوك أو مخاوف تساوره بشأن ما سوف يحدث لاحقًا، فأومأ رأسه بالقبول، معلنًا استسلامه التام لتوجيهات الطبيب بريمان الأولية له، فحدثه الطبيب بريمان حينها قائلًا:

- أريدك أن تشعر بالراحة التامة، أن تشعر بالأمان والاسترخاء، رجاءًا استلقِ بظهرك على الأريكة، في أي وضعية تشعرك بالراحة عن غيرها، ثم قام الطبيب بريمان من مقعده ليمسك براحة يديه كتفي بروفيسور هادسون ليدفعه برفقٍ ليستند بظهره على المضجعِ المخملي، وقد ارخى جسده كليًا ورفع رأسه للأعلى لينصَب نظره نحو سقف الغرفة، ليلفت انتباهه شيء لم يكن يلحظه حين جلس منذ قليل، كان هناك دائرة صغيرة، لا يتجاوز قُطْرُها الخمسة سنتيمترات مصنوعةً من مادة البلاستيك المشع، مثبتة في سقف الحائط من فوقه، والتي يصعب ملاحظتها إلا في حالة الاستلقاء فحسب.

تحرك الطبيب بريمان ليطفئ معظم أنوار الغرفة ليطل ضوء خافت على الأجواء، ولكن بالرغم من ذلك الجو المعتم كانت النقطة واضحة في السقف

وضوح النجم الساطع في السماء الحالكة، وحينها بدأ بتوجيه بروفيسور هادسون للخطوة القادمة* قائلًا بنبرةٍ هادئة، وصوتٌ خافت:

- والآن ضع نصب عينيك المتواجدة في سقف الغرفة، ثم حاول أن تصُب تركيزك على التنفس الخاص بك، أريد منك القيام بتنفس عميق ومنتظم بشكل متتالي، شهيقٌ يليه زفيرٌ.

ثم صمت لوهلةٍ حتى شرع بروفيسور هادسون بتطبيق ما قد طلبه منه ليستطرد حديثه بنفس النبرة الهادئة الخافتة:

- أريدك أن تستنشق الهواء بعمق حتى يملأ رئتيك كليًا، والآن فلتسمح للهواء بالخروج ببطءٍ حتى تفرغ رئتيك منه، وأثناء قيامك بذلك، أريدك أن تحاول تصفية ذهنك بالكامل، ثم عاد للسكون مجددًا للحظات ثم هَمَّ قائلًا: والآن، هلا حدقت في النقطة المضيئة في السقف من فوقك جيدًا.

وبالفعل أخذ البروفيسور هادسون يتأمل الضوء المشع من تلك النقطة، لتعود كلمات الطبيب بريمان مجددًا للتطرق إلى مسامعه:

---

*تحذير: الخطوات التنفيذية لجلسة التنويم المغناطيسية المذكورة، هي خطوات تطبق على أرض الواقع، فرجاءًا عدم تجربتها.
المرجع كتاب "Hypnotherapy" للكاتب/Dave Elman.

- والآن، حاول تشعر بثقل جفونك وهو يزداد أكثر، فأكثر، لقد غدت عيناك مرهقتين، وبالكاد تستطيع ابقائهما مفتوحتين، ثم هدأ لثوانٍ قبل أن يستمر في الحديث: حاول أن تستسلم، وتسمح لعينيك بالانغلاق كليًا.

أطبق حينها بروفيسور هادسون جفنيه، والتي بدتا له بالفعل متعبتان وبدأ يشعر بالحاجة لإراحتهما، وبعد ذلك حاول الطبيب بريمان أن يعزز شعور المريض بالاسترخاء، عن طريق ترديد عبارات تشجيعية تساعده على الوصول لحالة أعمق من الهدوء والاسترخاء، فبدأ مجددًا بالحديث بصوتٍ هادئ ومتزن:

- تخيل نفسك في مكانٍ ما، حيث تشعر بالأمان والسعادة، كرمال شاطئٍ تريح عليها جسدك المثقل الذي يتوق للراحة، والآن قم باستخدام كل حواسك وحاول أن تستحضر كافة تفاصيل ذلك المكان، صوت الأمواج وهي تتكسر على الشاطئ، نسمات الهواء العليل وهي تداعب وجهك، حبات الرمال المتطايرة في الهواء، تضرب قدميك برفقٍ.

- .....

بعد شعور بروفيسور هادسون بمرور وقت قليل على آخر كلمات أُلقيت على مسمعه، وجد نفسه قد استفاق قليلًا من حالة الاسترخاء السابقة، لتمر عليه الثواني ويزداد ادراكه ووعيه بما يحيط من حوله، وهنا وجد الطبيب بريمان جالسًا أمامه ينظر له ويحدثه مبتسمًا:

- ألم أقل لك أنك لن تشعر بشيءٍ!

فسأله بروفيسور هادسون وهو ينظر إليه بعينين زائغتين، محاولًا استعادة اتزانه، وجمع شتات تركيزه:

- ما الذي حدث؟

- لقد نجحت عملية التنويم، وبعد أن انتهينا من جلستنا أخرجتك من حالة الثبات تدريجيًا، حتى استفقت الآن.

- كم لبثت في تلك الجلسة؟

نظر حينها الطبيب بريمان نحو ساعة يده، ثم عاد ليجيبه:

- ما يقارب النصف ساعة.

- ولكني لا أشعر بأي تحسنٍ بعد!

- لقد أخبرتك أن هذا علاج تدريجي، فَلِتُمْهِل نفسك بعض الوقت، ثم عاد الطبيب للحديث بنبرة جادة: ولكن المداومة في حضور بقية الجلسات هي التي سوف تضمن نجاح هذا العلاج، ولذلك في حالة تقاعسك عن الحضور فسوف يذهب كل ما نفعله سُدى.

أومأ بروفيسور هادسون برأسه متفهمًا لما قيل، وقد أحنى جبينه كمن أفاق من غفلته للتو، وحينها قام الطبيب بريمان من مجلسه ليهب إلى المكتب، ويأخذ ورقة وصفات الدواء، ويبدأ في التدوين بها وهو يحدثه:

- يجب أن تداوم على هذا العلاج* حتى الجلسة القادمة.

ثم أعطى الورقة لبروفيسور هادسون الذي أخذ يتفحصها لثوانٍ في صمتٍ، ثم خرجت الكلمات من فمه ممتزجةً بابتسامةٍ، أطلت على وجهه وهو يقول:

- لقد سعدت بلقائك مجددًا حضرة الطبيب، أراك في الأسبوع القادم.

****

*تُساهم الأدوية المضادة للاكتئاب في توفير ماده السيروتونين، وهي أحد أنواع الناقلات العصبية للخلايا العصبية، لكي تتمكن من إرسال الرسائل بشكل صحيح للمنطقة الدماغية التي تنظم الحالة المزاجية للمريض.

"أنا أُدعى ديفيد"

في إحدى الشقق متناهية الصغر، بالبناية رقم "٣١ب" بجاده "هولمن" ببلدة "ايبينج" بمقاطعة "إسكس"، جلس "ديفيد" في غرفته بعينين تصارعان النعاس، كان لم يغمض له جفن سوى بضع ساعاتٍ، فعقله كان يعمل دومًا دونما القدرة على إيقافه ليتمكن من النوم، هكذا كان الحال طيلة الأيام الماضية، كان ديفيد يجلس في غرفته يلوك طعامه في بطءٍ، وهو يتأمل بنظراتٍ متجهمة المكان من حوله بجدرانه تلك التي بهتت ملامح ألوانها منذ فترةٍ طويلة، وأرضيته المتكدسة بالملابس المتسخة منذ أيامٍ، بل أسابيع إن صح التعبير، نظر إلى ركن الغرفة ليتأمل الآلة الكاتبة الموضوعة فوق مكتبه الصغير، والتي لم تمسسها يده منذ فترةٍ طويلة، وبجانبها عدد هزيل من الأوراق، حينها ارتعش ضوء الغرفة من فوقه متوعدًا بانقطاعه القريب، فرفع ديفيد رأسه للأعلى في هدوءٍ ليلقي بنظره عليه ثم عاد لطعامه مجددًا لينتهي منه، وأخذ الصحن عائدًا به مرةً أخرى إلى المطبخ ليضعه فوق بقية الصحون الأخرى المتراكمة منذ أيامٍ ولم يكترث بتنظيفها، وقف في مطبخه منشغل البال يفكر، ما هذه الحياة التي يحياها؟!

كانت كل الأيام تتشابه بالنسبة له، لم يعد يفرقها شيء، إنه لا يتذكر حتى تاريخ اليوم! لقد أصبح يعيش حياةً غير آدمية، لا يقبلها أحدٌ سواه، ولكن ما الفارق في أن يقبلها أحدٌ آخر أم لا؟! فهو يعيش وحيدًا ولا يعبأ به أحدٌ، هل سيكمل بقية حياته على هذه الشاكلة؟ أم سيأتي يوم ويصبح لحياته معنى مرةً أخرى؟!

قَطع وصال أفكاره السوداوية صوت طرقٍ قويًا على الباب يوحي بحدوث كارثة تنتظر الإعلان عن نفسها فخرج ليسرع ويفتح الباب، فإذا به يجد ما لم يكن يتوقعه! كان يقف أمام عتبة منزله شخص يرتدي عباءةً سوداء اللون تغطي كامل جسده، بينما تعلو رأسه قلنسوة العباءة لتغطي معظم الرأس حتى منبت جبهته، ولكن ما آثار الغرابة في نفس ديفيد أكثر، هو أن الرجل كان يرتدي قناعًا يستتر وجهه خلفه، كان القناع مصنوعًا من معدنٍ حديدي لوجه إنسان ذو ملامح هادئة وفاه مطبق، ولكن الشيء الذي ميز هذا القناع عن دونه، هو أن القناع يحتوي على خدوشٍ مختلفة الحجم لبراثن شتَّى تتكالب لتحتل كل جزءٍ فيه، مجرد النظر إليه يُشعرك بأن هذا القناع قد خاض آلاف المعارك مع الوحوش الضارية طيلة وجوده.

- مرحبًا ديفيد.

تبين الحديث من شفتي صاحب القناع متحشرجًا مكتومًا؛ إثر تحدثه من خلف القناع المُطبق على وجهه، فلم يفتح ديفيد فاه حينها واكتفى بالوقوف صامتًا مثبتًا في مكانه، فقد كان بالرغم من غرابة ما يراه من أمامه، إلا أنه في قرارة نفسه شعر أنه يعرف هذا الرجل جيدًا، شعر بأنه رأى هذا القناع من قبل في وقتٍ ما قد مضى ليصبح ذكرى مبهمة في عقله.

- هلا سمحت لي بالدخول؟

قالها الشخص الغامض وهو يدنو بهدوءٍ صوب مدخل الباب مقتربًا من ديفيد الذي تحرك حينها جانبًا في هدوءٍ ليدلف الرجل إلى الداخل، لم يدر ديفيد لماذا سمح لهذا الشخص بالدلوف إلى منزله! ربما بسبب الفضول لمعرفه من هو، وما سبب مجيئه إليه! ربما لأنه شعر بأن هذا الشخص ليس بغريبٍ عنه، إنه لا يعرف السبب الحقيقي وراء فعلته هذه! ولكن ما يهم هو أن فضوله كان أكبر من أن يردعه.

أخذ الشخص الغامض يتفحص المكان من حوله لثوانٍ، ثم التفت إلى ديفيد الذي كان يقف قرابة الباب بعد أن أقفله ليتحدث إليه قائلًا:

- لا أصدق أنه قد آل بك الحال إلى هذا الوضع المؤسف.

الكثير من التساؤلات والأفكار المتضاربة كانت تجول بعقل ديفيد، فسأل الشخص من أمامه في ريبةٍ:

- من أنت؟!

فأجابه الرجل ذو القناع:

- أنا صديق قديم لوالديك.

فسأله ديفيد والريبة لا تبارح قلبه:

- وما اسمك؟

- إن اسمي الحقيقي يصعب على لسانك البشري نطقه، ولكن يمكنك أن تدعوني "زاركن".

لم يفهم ديفيد ما يرمي إليه الرجل، فعاد ليسأله مجددًا وهو يصب نظره نحو القناع وكأنه يحاول تذكر أمرًا ما:

- هذا القناع! أنا أشعر أني اعرفه جيدًا، لماذا؟!

فأجابه زاركن بهدوءٍ وهو يبسط يديه للأمام نحو ديفيد:

- ربما لأنك في المرة الأخيرة التي رأيتني بها كنت أرتديه حينما كنت أحملك بين يدي هاتين، ثم عاد ليستطرد: إنه أنا من أوصلك إلى أبويك بالتبني.

صُدم ديفيد مما قاله ذو القناع، فلا أحد يعلم أنه كان طفل مُتبَنىَ سوى قلة قليلة من الأشخاص، فلقد كان هذا السر الذي أخفاه والداه عن العالم أجمع، ومات هذا السر الدفين مع موت كل من يعرفونه، فصاح به:

- كيف عرفت أنني كنت طفل متبنى؟

فأجابه زاركن:

- لأني ببساطةٍ كنت صديق والديك الحقيقِيّين.

لم يعرف ديفيد ماذا عليه أن يشعر الآن بعد أن سمع ذلك، هل يشعر بالسعادة لأنه على وشك معرفة من هما والداه الحقيقيان، أم يشعر بالريبة لإتيان هذا الرجل الغامض إليه الآن، ومعرفته بالسر الذي أخفاه عن الجميع، ولكن الشعور المؤكد الذي يعتريه الآن هو الفضول الشديد لرؤية الوجه القابع خلف القناع، فرفع يده للأعلى وهو يشير نحو قناع الرجل قائلًا:

- انزع هذا القناع، أريد أن أبصر وجهك.

- إن أشحت بالقناع عن وجهي لن تتحمل رؤيتي! فأنت تعيش في هيئةٍ بشرية منذ سنواتٍ كثيرة جعلتك هشًا لا تحتمل أمورًا عديدة اعتدت عليها في الماضي، لربما سوف أفصح لك عنه في وقتٍ لاحق، حينما تصبح مستعدًا لذلك.

صاح ديفيد بزاركن مستخفًا بما يقول:

- أنا لا أفهم ما الذي تتحدث عنه! هيئتك البشرية، ولغة البشر! عن أي هراءٍ تتحدث؟! ثم عاود حديثه مرةً أخرى ليسأله بسخريةٍ وهو يتفحصه بنظره: وما المُفترض أن تكون أنت؟ مخلوق غير بشري؟!

فأجابه زاركن بصوته المتحشرج في هدوءٍ:

- أجل يا ديفيد، وكذلك أنت أيضًا!

صمت ديفيد لثوانٍ وهو يحدق بالرجل لا يعرف ماذا يقول، فاستطرد الرجل الحديث مرةً أخرى:

- لقد أوصتني والدتك أنه عندما يحين الوقت المناسب أن آتي إليك لأجعلك تستعد لكي تستعيد مكانك الشرعي، في الجحيم.

تراجع ديفيد بضع خطواتٍ للوراء وهو ينظر نحو الرجل في خوفٍ:

- أنت رجلٌ مجنونٌ، ابتعد عني.

فأجابه زاركن بسخريةٍ:

- ربما، ولكنني بالتأكيد لست أكثر جنونًا من شخصٍ يُبصر مخلوقات من الجحيم طيلة عمره، منذ أن كان شابًا يافعًا!

تملك الذهول من ديفيد لِما سمعه من الرجل للتو، كيف يعرف كل خفايا تلك الأسرارعنه، هذا السر بالتحديد لم يُحَدِّث به أحدًا أيًا كان طيلة عمره، فسأله سريعًا بتشكك:

- كيف عرفت هذا؟ أنا لم أفصح بهذا لأي أحدٍ من قبل.

فأجابه زاركن:

- هذا لأنك لست شخصًا مصاب بالجنون يا ديفيد! فما كنت تمر به هو قدرة تمتلكها تسمى بالوهج، هذا الوهج هو وميض يكشف لك الهيئة الحقيقية لتلك المخلوقات، ويتيح لك ابصارها بعيدًا عن الهيئة البشرية التي تستتر خلفها، ثم عاد مستأنفًا: اعرف يا ديفيد أن عقلك الآن عاجزًا عن استيعاب هذا الكم من المعلومات في آنٍ واحد، لذلك دعني اشرح لك الأمر واثبته لك واقص عليك ما لا يعرفه عنك أحد من البشر.

لم تعد قدما ديفيد قادرتان على حمله أكثر من ذلك، فتحرك ليجلس على الأريكة وهو ينظر إلى الرجل الواقف أمامه، وقد بدأ حديثه مجددًا:

- ما يجب عليك أن تعرفه، هو أن الجحيم مثل الأرض، تعيش به مخلوقاته وترضخ لقوانينه وتسكن ممالكه، ومن المخلوقات التي تعيش فيه مخلوقات تُدعى "الجرول" وهي من أقوى العشائر التي تعيش هناك، كانت تلك المخلوقات هي الأكثر تميزًا وهيمنة في عالم الجحيم لقيامها بمهامٍ تستطيع هي فقط تأديتها دون غيرها، فعلى الرغم من أن الجحيم هو عالم المخلوقات الشيطانية، إلا أن كنف الجحيم لم يكن مناسبًا لكل مخلوقاته، لذلك كان هناك من تلك المخلوقات من يسعى دائمًا للهرب من ذلك المكان والابتعاد عنه والعيش في عالم البشر متوارٍ عن الأنظار في هيئة بشرية، وهنا كان يأتي دور مخلوقات الجرول فقد كانت هي المسئولة عن ارجاع المخلوقات الشيطانية الهاربة من الجحيم، واعادتها له، فهي تمتلك دون غيرها قدرة ابصارهم والعثور عليهم وسط مئات من البشر التي تتخفى بينهم، ثم أشار بإصبعه نحو ديفيد وهو يردف: لقد حكمت سلالتك ممالك في الجحيم لأعوامٍ مديدة، حتى جاء الوقت وتُوفي جدك ليرث والدك ممالكه، ولم يكن يخفى على الجميع حقد وغيره أخيه "كارث" الذي يصغره، وقد كان يطمح

بأن يرث الحكم بعد موت والدك، ولكن تلاشت أحلامه وطموحاته في الهواء يوم مولدك، فحينها أيقن "كارث" أنه لن يصل إلى الحكم طالما أنك على قيد الحياة، ولم تمر سنوات على مولدك، حتى قام أحد أعوانه بقتل والدك غدرًا في نومه، دون أن يتمكن أحد من إيجاد دليل يدينه، وحينها أدركت والدتك أنه لن يهنأ لـ "كارث" بال حتى ينال منك أنت الآخر، فأمرتني بإخفائك بعيدًا لكي لا يعثر عليك عمك خوفًا على حياتك، ولم تمر أيام على ذلك إلا وتأكد كارث من لحاقها بوالدك هي الأخرى، ثم دنا زاركن من مجلس ديفيد وهو يستأنف حديثه: فأتيت بك هنا، إلى عالم الأرض وأخفيتك في هيئةٍ بشرية، لن يفرقها مخلوقات بسيطة وواهنة مثل البشر، وحرصت حينها أن أُذهب عن عقلك ذكريات حياتك الماضية، وما تحتويه من أسرارٍ، خشية أن يتم الحكم عليك بالجنون، أملًا في أن تنعم وسطهم بالراحة والسلام، ولكن مع مرور الوقت بدأت قدراتك الدفينة كمخلوق جرول تنكشف عنك، وكلما كبرت كلما كانت الومضات تزداد عليك أكثر، فأكثر، حتى عزلتك عن الجميع وبت غريبًا في عالم البشر سجين أفكارهم وأحكامهم الحمقاء، ثم عاد ليستأنف: وقد أدي ازدياد الوميض في النهاية إلى أن يعلم "كارث" بمكانك الذي قضى ما مضى من عمره في البحث عنه، ومنذ ذلك الحين وهو يرسل أعوانه الواحد تلو الآخر إلى عالم البشر للقضاء

عليك، حتى وإن تَطَلَّب الأمر إقصاء كل من يحبك أو يهتم لأمرك، لتصبح وحيدًا لا حيلة لك ليتمكنوا من إنهاء حياتك، خشية أن يأتي اليوم الذي تعود فيه وتطالب بحقك الشرعي في الحكم وتنتزعه منه، والآن لم يعد هناك داعٍي للانتظار، فقد حان وقت عودتك لعالمك الحقيقي الذي تنتمي له، فإن لوالدك الكثير من عشيرتك الذين يدينون له بالولاء وسوف يقفون معك لاسترداد حكمك، ولكني أعلم جيدًا أن كارث سوف يرفض صعودك على العرش معللًا ذلك بأنك لم تعد واحد منهم، وقد غدوت بشري خنوع لا تقدر على قيادة ممالك وجيوش والدك في الجحيم.

ذكريات عديدة أتت مصحوبة ببراهينٍ جمّة من شخصٍ يشعر ديفيد بمعرفته جيدًا، لغو جنوني لأي شخصٍ آخر عداه، فهو يعرف بوجودهم بالفعل، وقد عانى من إبصارهم والهرب منهم طيلة حياته، لربما حان الوقت ليدرك المغزى من وجوده هنا، فسواء شاء أم أبى لقد كان يشعر دائمًا بأنه مختلف عمن حوله، وها قد أدرك السبب متأخرًا، ولكن قد تكون تلك الفرصة السانحة ليعرف ما كان خافيًا عنه، فتحدث ليسأل زاركن حينها:

- وما العمل إذًا؟

- إن الفرصة الوحيدة لتنال حقك الشرعي في ممالك الجحيم كقائدٍ لعشيرتك، هي أن تعود كأحد مخلوقات بني جنسك، مخلوق جرول ذو بأس وجَلَد شديد، ولن يكون هذا إلا عن طريق التفّوق فيما يُجيدونه، وهو اصطياد المخلوقات الشيطانية التي تعيش هنا وسط البشر، لتعود بها إلى قلب الجحيم، ولهذا فلقد جمعت بعض المعلومات عن أمكر مخلوقات الجنس الشيطاني التي تعيش هنا، مختبئة بمهارةٍ طيلة حياتها، وقد أنهكت مخلوقات الجرول في العثور عليها، لتأتي دائمًا جهود البحث المضنية عنها دون جدوى، ثم تقدم ليمسك كتفي ديفيد وهو يحدثه، والحماس يملأه: ولكن بالمعلومات التي لدينا سوف تتمكن من الامساك بها واقتيادها إلى الجحيم حيث تنتمي، وحينها تستطيع العودة ظافرًا بها كإثبات لا يحتمل التأويل على أنك ما تزال مخلوق جرول لا يجب الاستهانة به، وقد تفوقت عمن دونك من بني جنسك، واستطعت تحقيق ما قد فشلوا فيه جميعًا، وضع زاركن يده داخل عباءته ليُخرج قِنّينة خشبية صغيرة منحوتًا عليها طلسم غريب يبدو كنقشٍ غير مفهوم بِلُغَةٍ لم يرها أحد من سكان الأرض من قبل، ليمد يده تجاه ديفيد قائلًا: والآن حان الوقت لترى من أنت، أنت تنحدر من سلالة أول جرول عاش في الجحيم، مخلوقٌ بغيضٌ للغاية، تمنى الجحيم

حينها لو يلفظه خارجه، ولا يتواجد فيه على الإطلاق، أنت لست ديفيد البشري الخنوع، أنت الإثم ذو البراثن.

نهض ديفيد من مجلسه ليدنو بوجهه من القِنّينة التي يمسكها زاركن بيده، وهو يتطلع نحو الطلسم في فضولٍ قائلًا:

- هذا النقش، أنا أعرفه جيدًا، ولكني لا أستطيع تذكر ماهيته؟

فأمسك زاركن بيده الأخرى كتف ديفيد، وهو يُحدثه بصوته المتحشرج:

- هذا النقش هو شعار عشيرة والديك، لقد علمك أباك رسمه منذ أن كنت طفلًا صغيرًا، وقد حان الوقت لتتذكر مجددًا شعار عشيرتك، والتي ستصبح قائدها في القريب، ثم أعطى القِنّينة لديفيد وهو يحدثه: هذه قِنّينَة مصنوعة من خشب "الازروج"، تلك الشجرة الوحيدة التي تنمو في الجحيم، إن خشبها هو الشيء الوحيد القادر على احتواء الترياق الذي بداخلها، بداخل تلك القِنّينة يا ديفيد توجد الحقيقة، هذا الترياق قادر على إعادتك إلى هيئتك الحقيقية التي باتت غريبة عنك لا تتذكرها، بضع قطراتٍ منه وسوف تعود كأحد مخلوقات الجرول مرةً أخرى.

ثم تحرك زاركن بهدوءٍ نحو مِرآةٍ زجاجية كبيرة معلقة على أحد جدران المكان، لينظر إليها لثوانٍ معدودة وهو ينطق بكلمات ما بنبرةٍ عالية، ثم أرجع يده للخلف ليدفع قبضته بقوةٍ في قلب المرآة لتتهشم قطع كبيرة منها وتسقط على الأرض، بينما تناثرت شظاياها في الأرجاء، لتترك قبضته بضع أجزاء من المرآة في مكانها تجاهد السقوط.

- لماذا فعلت هذا؟

صاح به ديفيد وهو ينظر إلى الزجاج المتناثر على الأرض ليلتفت زاركن له وهو يجيبه:

- إن التعويذة التي تعكس هيئتنا الحقيقية في عالم البشر يجب أن تتم على مِرآةٍ محطمة لا تتماسك أجزائها ببعضها البعض أو تستوي، وحدها المِرآةُ المهشمة هي القادرة على كشف حقيقة ما نبدو عليه، ثم صمت للحظه قبل أن يستأنف حديثه وهو يشير نحو القِنّينة: والآن كل ما عليك هو أن تتجرع ما تحتويه القِنّينة من ترياقٍ وسوف تعرف عما أتحدث.

وضع ديفيد يده على غطاء القِنّينة ليفتحه، ولكن أمسك زاركن بمعصمه في عجالةٍ ليحدثه:

- رويدك، يجب أن أذهب واتركك وحدك.

- نظر إليه ديفيد متعجبًا، لا يفهم السبب!

فأجابه زاركن:

- سوف أتركك كي تواجه نفسك، فسوف يكون جسدك الجديد غريب عنك، ربما سوف تنكره وربما سوف تصارع لاحتوائه، ولكنه في نهاية الأمر سوف يخرج إلى العنان وسوف تقبله وتعتنقه.

التفت زاركن تجاه الباب وبدأ بالتحرك نحوه، فسأله ديفيد في عجالةٍ:

- هل سوف نتقابل مجددًا؟

فالتفت زاركن برأسه جانبًا وهو يجيبه:

- بعد يومين من الآن، وفي نفس الموعد سوف نتقابل، فما زال أمامنا الكثير لنتحدث عنه.

وقف ديفيد يراقبه وهو يخرج من الباب، ويطبقه من خلفه، ثم عاد ونظر إلى القِنّينة في يده، ثم تقدم لينظر في حطام المِرآة من أمامه، ثم أطبق جيدًا بيده الأخرى على الغطاء ليخرجه، وبدأ بتجرع ما بداخلها حتى أفرغها، وقف لثوانٍ يتأمل الطلسم المحفور على القنينة مجددًا، كان شعور غريب بداخله يعتريه بأنه بالفعل رأى ذلك الطلسم في حياةٍ أخرى غير تلك الحياة، شعر بأنها كانت ذكريات دفينة تحت ركام الزمن ولم يكن يدرك وجودها، فيبدو أنها ذكريات ليست بالفعل بشرية، فهو يتذكر ومضات ضبابية منها لكنها تمس قلبه، عقله ووجدانه.

شق السكون سقوط الزجاجة من يده جراء ألم حاد في رأسه جعله يمسكها بكلتا يديه في حركةٍ تلقائية، حينها فوجئ بشعر رأسه وهو يتحرك تحت راحة يديه، وكأن خصلات شعره قد خرجت من منبتها، فأعاد يديه أمامه لموضع عينيه ليبصر خصلات شعره في يديه بالفعل، بينما أخذت بقية خصلات شعره الباقية بالتساقط على الأرض الواحدة تلو الأخرى، اتسعت عينا ديفيد رعبًا لما يحدث له، ولكن أتى ألم آخر مباغتٌ له في ظهره جعله ينحني للأسفل وهو يشعر أن شيئًا قد بدأ بالنمو فوق ظهره، قام بخلع قميصه وهو يتأوه ليتحسس ظهره في تَوَجُّسٍ ليشعر بشيءٍ غريب يعتلي منتصف ظهرِه،

حينها هرع ديفيد إلى بقايا المِرآة المهشمة لكي يبصر ما يحدث له، لم يدرك حينها أنه توجه نحوها على أطرافه الأربعة، ناسيًا اليوم الذي مشى فيه على اثنين، فنظر من خلال بقايا الزجاج في المِرآة لكي يبصر حقيقته للمرة الأولى.

كان ديفيد ينظر لمخلوقٍ غريب أصلع الرأس والجسد، عيناه المشقوقتان تتسعان غضبًا، بينما تبرز أسنانه الكبيرة خارج فكه، أسنان يبدو أنها صُممت خصيصًا لشيءٍ واحدٍ فقط وهو فصل اللحم عن العظم، تحرك جانبًا لكي يبصر ظهره وقد ازداد ضخامة ونما منه شعرٌ كثيفٌ ممتد بطريقةٍ طولية إلى أسفل ظهره كالضباعِ، ثم رفع يديه المتضخمتين أمام وجهه ليحدق في البراثن التي برزت منهما معلنةً عن ثقتها في تقطيع أي جسد أمامها كقطعة من الزبد، حينها حاولت كلماته أن تخرج من حلقه ولكن دون جدوى، فما كان يصدر منه فقط هو الخوار، خوار وحشٍ غاضب لا يعرف سوى الثورة العارمة التي تشتعل داخل صدره، تحرك يمينًا ويسارًا أمام المرآة على أطرافه الأربعة وهي تصدر صوت صرير احتكاك الأرض ببراثنها، شعر بأنه لم يعد يستطيع السيطرة على نفسه، وأنه قد بدأ يفقد تفكيره ووعيه البشري لينبثق من داخله شيئًا آخر يطالب بحقه في الظهور إلى العلن، والسيطرة عليه، أتت صرخة غاضبة منه حينها على هيئة زئيرٍ قوي يصل إلى عنان السماء، أثار

صوت الزئير الذعر في سكان البناية، وانقبضت قلوب كل من سمعه حينها، منهم من احتضن ابناءه في خوفٍ، ومنهم من هاتف الشرطة للإبلاغ عن وجود حيوان ضاري في البناية، ومنهم من استفاق هلعًا من نومه، ومنهم من أخرج رأسه من باب شقته وهو مرتعد لينظر في الطرقات، لم يكن أحدٌ يعرف حقيقة ما يحدث، ولم يكن أحدٌ يعرف بمولد ووصول من لا يُوصَف إلى عالمهم، فقد سبق وأن كان ينتمي إليه، ولكنه الآن بات غريبًا عنه.

الفصل الثاني

"منزل آل جرين"

جلس الرجل على طاولة الطعام الموضوعة بالمطبخ، والخاوية من أي شيءٍ عدا منفضة السجائر التي تكدست بالأعقاب، أشعل سيجارة أخرى وبدأ باستنشاق دخانها وعيناه شاردتان يفكر في شيءٍ ما، ولكن سرعان ما أفاقه من شروده السؤال الذي طرحته عليه زوجته، دون أن تنظر إليه بينما كانت تقوم بغسل أطباق الطعام:

- هل وصلتك أية أخبار من العمل؟

فبدأ زوجها في الحديث وهو ينظر ببرودٍ نحو منفضة السجائر الموضوعة أمامه:

- لا، لم يتصل بي أحد، ثم أردف في عجالةٍ: ولقد قلت لكِ من قبل أني لن أبادر بالاتصال.

فتحدثت زوجته بصوتٍ خافتٍ أشبه بالهمهمة:

- أنا لم أقل لك أن تتصل بهم.

التفت برأسِه نحوها ليجيبها في حنق:

- أنتِ لم تقولي ذلك بعد، ولكني أعلم ما سوف يؤول هذا الحديث إليه، فلا يمر يوم أو اثنان إلا وتطرحين تلك الأسئلة التي غدوت أحفظها عن ظهر قلب.

ثم قام ليتحرك نحوها، وهو يقلد أسلوبها في الحديث:

- هل وصلتك أيةُ أخبار من العمل؟ لماذا لا تتصل بهم كي تعرف إن كان قد استجد شيئًا ما؟ لماذا لا تحاول الضغط عليهم ليعيدوك للعمل مجددًا؟

لم تنظر له زوجته وتابعت النظر نحو الأطباق وهي تكمل غسلها، فأمسك بيدها في حزمٍ وهو يقول:

- لقد قلت لكِ من قبل أني لن أتوسل لهم كي يعيدوني إلى العمل، أنا أهم من ذلك بكثيرٍ، إذا لم يدركوا أهميتي فلا حاجة لي لهم في شيءٍ، هناك المئات غيرهم ممن يريدون الاستفادة من خبرتي.

فأجابته زوجته وهي مستمرة فيما تفعله بهدوءٍ دون أن تنظر إليه:

- إذا كان ما تقوله صحيح، فلماذا لم يتصل أحدٌ بك حتى الآن؟!

نظر زوجها إليها في صمتٍ، لا يدري ماذا يجب عليه قوله، ولكن قاطع نقاشهما بغتة صوت شخص يقرع باب المنزل، فالتفت الرجل ناحية الصوت، وتقدم خطواتًا قليلة حتى توقف عند مدخل المطبخ ليسأل زوجته في تَوَجُّسٍ بينما عيناه معلقتان نحو الباب سائلًا إياها:

- هل تنتظرين أحد؟

فأجابته زوجته وهي تدفعه جانبًا لتتمكن من العبور:

- هلا أفسحت الطريق لكي أستطيع الذهاب لأعرف من بالخارج؟

تحركت زوجته تجاه الباب وفتحته بهدوءٍ لترى من بالخارج، فإذ بها ترى شابًا نحيفًا يرتدي زيًا رسميًا لأحد شركات التوصيل، ويعتمر قبعة رأس مكتوب عليها اسم الشركة، بينما كان يُمسك بصندوقٍ متوسط الحجم وضع عليه ملصق "تحذير قابل للكسر".

ابتسم الشاب للسيدة محييًا إياها:

- عمتِ صباحًا سيدتي، هل هذا منزل السيد جرين؟

فأومأت له برأسها، فعاد ليستأنف ما يقول وهو يسلمها الطرد:

- لدى طرد لأوصله هنا، إنها عينات الزجاج المطلوبة.

فأمسكت الطرد بيديها وبترٍو شديد خيفة أن يُكسر ما يحتويه، لتودعه بابتسامةٍ وهي تقترب من الباب لتدفعه للأمام بكتفها وتغلقه، ولكنه حدثها في عجالةٍ قبل أن تغلق الباب وهو يخرج ورقةً وقلم ويمدهما صوبها قائلًا:

- برجاء أن توقعي لي بالاستلام إذا سمحتِ.

فأجابته الزوجة وهي ترجع للخلف، ممسكة بالطرد:

- حسنًا، أمهلني بضع ثوانٍ لأضع الطرد جانبًا، وسوف آتي إليك.

ما لم تكن تعرفه الزوجة حينها هو أن زوجها كان يقف جانبًا يشاهد الموقف منذ بدايته، مراقبًا الشاب وتحركاته، كان يشعر بأن شيئًا ما ليس على ما يرام، وبالفعل حدث ما كان يخشاه، فبمجرد أن التفتت الزوجة للداخل مجددًا ممسكةً بالطرد، حتى وجد الشاب الواقف على الباب يبتسم بخبثٍ وقد بدأ يجفل عينيه المشقوقتين مثل أعين الأفاعي، ليخرج بغتةً من فمه لسان رفيع مشقوقٌ في نهايته، ليعيده للداخل سريعًا في لمح البصر دون أن يتوقع أن أحدًا يراه.

لم يستطع الزوج كبح جماح أعصابه بعد ما أدركه، فوجد نفسه يجري بأقصى ما يملك من قوةٍ كالقطار المندفع ليصطدم أثناء ركضه بزوجته، فأطاحها جانبًا لتسقط أرضًا هي والطرد الذي كانت تحمله، ثم استأنف ركضه بقوةٍ حتى وصل للشاب الذي تسمر في مكانه لا يدري سبب هذا الهجوم الغاشم عليه، وحينها كال الرجل لكمةً قوية للشاب كادت تطيح برأسه من فوق جسده ليسقط على الأرض يتأوه من الألم.

صرخت الزوجة من صدمة ما رأته ثم هرعت جزعةً إلى زوجها لتقف أمامه لتحول بينه وبين الشاب المُلقى على ظهره، بينما جرى بعض المارة نحوهم إثر مشاهدتهم لما حدث، البعض منهم ساعد الشاب على النهوض ليعود

ويقف مترنحًا والدماء تسيل من أنفه، بينما حاول البعض الآخر تهدئة الرجل الذي ما زال في ثورةٍ من أمره يحاول التملص منهم ليعاود هجومه على الشاب مرةً أخرى.

تحركت زوجة الرجل نحو الشاب وقد التقطت قبعة رأسه الملقاة على الأرض لتعطيها إياه، وهي تترجاه قائلةً:

- أرجوك أن تسامح زوجي، إنه يمر بفترةٍ عصيبة في حياته.

أمسك الشاب القبعة منها وهو ينظر نحو زوجها في ذهولٍ، بينما أسنده البعض ليعاونوه على التحرك، ومن الناحية الأخرى كان الرجل ينظر ناحية الشاب هو الآخر وقد اتسعت عينيه غضبًا وهو يبصر الشاب وقد التفت لينظر إليه خلسةً وقد عاد للابتسام بخبثٍ شيطاني مرةً أخرى، ثم عاد ليظهر في هيئة الشاب البريء المُعتدى عليه، فصاح الرجل وهو يحاول الإفلات منهم بكل قوةٍ وهو يصيح:

- اتركوني أيها الحمقى، لا تدعوه يهرب.

أفاقه من ثورته صوت زوجته وهي تصيح في وجهه، وقد اغرورقت عينيها بالدموع وهي ترجوه:

- توقف اتوسل إليك!

نظر إليها زوجها وقد بدأ يهدأ قليلًا فاستأنفت حديثها وهي تمسك بيديها يديه:

- هيا يا عزيزي، لنعد للداخل.

تحرك الرجل خلف زوجته من وسط الجمع الذي يحيط بهما متوجهيَّن إلى المنزل، وبمجرد أن اغلقت الزوجة الباب من خلفها بعد دلوف زوجها، حتى وجدته يصيح بها محاولًا تبرير ما حدث:

- لقد خدعكِ هذا الشيء مثلما خدع الجميع، أنتِ لا تفطنين إلى ما كان ينوي فعله.

تحركت الزوجة بخطواتٍ مرهقة إلى الداخل لتصطدم قدمها دون قصد بالطرد المُلقى على الأرضِ؛ ليُصدر الأخير صوت تهشم ما بداخله، فتوقفت في مكانها وهي تنظر صوبه للحظات، ثم استأنفت تحركها قاصدة السُلم المؤدي للطابق الثاني وهي تتحدث بنبرةٍ متعبة:

- سوف أصعد لارتاح قليلًا.

نظر الرجل تجاهها ثم حاول إفهامها قائلًا:

- إنهم يحاولون قتلي، لماذا لا تصدقينني؟

لم تلق الزوجة له بالًا واستأنفت صعودها على درجات السُلم حتى توارت عن نظره، التفت الزوج عائدًا للمطبخ ليجلس على الطاولة ويشعل سيجاره من جديدٍ وهو يشعر بالحزن لما يظنه الجميع به، آملًا في أن يتمكن يومًا ما من اثبات صدق ما يخبرها به، وحقيقة ما يراه هو ولا يراه الآخرون.

****

"الطبيب بريمان، للأمراض النفسية والذُهانية"

مرحبًا بك في حانة "كاردل".

تستطيع من على بُعد اميال رؤية اليد الكبيرة، المصنوعة من أضواء النيون الممسكة بكوب الجعة، والموجودة على لافتةٍ كبيرة بجانب اسم الحانة، المكان مكتظًا بالداخل، ادخنة السجائر تعبئ المكان، الهمهمة العالية الناتجة عن حديث أكثر من خمسين شخص مجتمعين في مكانٍ واحدٍ، يتخللها صوت طرقعة عصيان البلياردو، أنغام جهاز الموسيقي المدفوع بالعملات المعدنية تعمل كخلفية هادئة للمكان، البعض يرقص في شجنٍ، البعض يتعارك على قلب فتاة، والبعض الآخر يتناول طعامه في هدوء، إنه مجرد يوم عُطلةٍ آخر هنا.

وفي الركن الخاص بطاولات الطعام كان هناك رجل في العقد الرابع من عمره، تتسم على وجهه ملامح الوقار، بينما كسا الشعر الأبيض اغلب رأسه، كان حليق الذقن يرتدي سروالًا وقميصًا سوداوان اللون، بينما زّين طوق أبيض من الكتان أسفل حلقه متوسطًا ياقة القميص الذي يرتديه، إنه "القس جوناس"، لقد جاء كعادته إلى هنا لتناول الطعام المحبب له، وبينما كان يجلس في هدوءٍ على إحدى الطاولات وقد انتهى من تناول وجبته، وجد من يربت على ظهره برفقٍ قائلًا:

- كنت أتوقع أن أجدك هنا.

اعتدل "القس جوناس" برأسه لكي يبصر من المتحدث! ليجد الطبيب بريمان ينظر إليه مبتسمًا وهو يردف:

- أرجو ألا أكون قد قاطعت خُلوتك.

تهلل وجه القس جوناس وهو يشير بيده نحو المقعد الآخر للطاولة، ليجيبه بترحابٍ:

- على العكس، تفضل يا صديقي.

تحرك الطبيب بريمان خطوتين للأمام ليجلس على المقعد، ثم تبادلا الاثنان النظرات الصامتة لوهلةٍ قبل أن يبدأ الطبيب بالحديث:

- نهاية أسبوع صعبة؟

فأجابه القس جوناس وهو يتنهد:

- المزيد من الاعترافات التي تثقل كاهلي كالعادة، ثم تحدث إلى الطبيب بريمان ليسأله:

- وأنت! ما الذي أتى بك إلى هنا؟

قاطع حديثهما قدوم النادل نحو الطاولة لينظر إلى الطبيب بريمان بابتسامةٍ أطلت على وجهه وهو يسأله:

- صباح الخير يا سيدي، هل أجلب لك شيئًا؟

- فأجابه: سوف أتناول كأس من الفودكا.

ثم التفت النادل برأسه ناحية القس جوناس:

- هل أُحضر لك المعتاد يا أبتاه؟

ابتسم القس جوناس للنادل بإيماءةٍ معبرة عن موافقته، فتحرك الشاب لينصرف عائدًا من حيث أتى.

راقب القس جوناس بعينيه النادل وهو يغادر حتى ابتعد عنهما، ثم نظر إلى الساعة في يده موجهًا حديثه للطبيب بريمان:

- أليس الوقت باكرًا لمثل هذا المشروب القوي؟ إن الساعة لم تتجاوز الرابعة عصرًا بعد!

أراح الطبيب بريمان ظهره المتعب للخلف وهو يجيبه:

- هل جربت محاولة اقناع مريض "أفانتازيا"* بالتخلي عن حلمه في أن يصبح رسام مشهورًا؟! صدقني، إنه الجحيم بذاته.

*الأفانتازيا: هي حالة عدم القدرة على التخيل، حيث لا يستطيع عقل المريض أن يستحضر التمثيل البصري المرافق لأي فكرة، ولا يمكنه عرض الصورة في ذهنه على الاطلاق.

*- جميع التعريفات الخاصة بالمصطلحات العلمية المذكورة في الرواية تم استدلالها من المراجع الأتية:

١- (كتاب الطب النفسي المعاصر) للطبيب "أحمد عكاشة".

٢- (الأمراض العقلية، والنفسية) للطبيب "عبد الرحمن محمد العيسوي".

٣- كتابي (معجم مصطلحات الطب النفسي، وموسوعة شرح المصطلحات النفسية) للطبيب "لطفي الشربيني".

رفع القس جوناس أحد حاجبيه في تعجبٍ وهو يجيبه:

- لا أملك أي فكرة عما تتحدث، ولكنه يبدو أمرًا مُرهِقًا.

فأجابه الطبيب بريمان ضاحكًا:

- لن تتصور كم هو مُرهِق عملي يا صديقي.

فمازحه القس جوناس مجددًا:

- صدقني، ليس مُرهِقًا كالاستماع إلى أسوأ آثام البشر كل يوم.

- لكني ظننت أنكم معتادون على مثل تلك الأمور! أعني اعترافات الرعايا بآثامهم.

فأجابه القس جوناس:

- الكذب، السرقة، وحتى الزِنا، تلك اعترافات تعتاد على سماعها بمرورِ الوقت، ولكن صدقني هناك آثام حين تسمعها لن تعود كما كنت في السابق، تلك الاعترافات تُثقل كاهلك وتقلق نومك، وربما تصحبك معها إلى الهاوية أيضًا، ثم استطرد حديثه ساخرًا: وكلما تحسب أنك سمعت كل شيء يمكن سماعه، تجد الأسوأ.

ابتسم الطبيب بريمان حينها وهو يحدثه:

- لقد قلت لك أنك تحتاج إلى جلسة تنويمٍ أخرى لكي أريحك من التوتر الذي أصبح يصيبك كثيرًا في الآونة الأخيرة.

فأجابه القس جوناس على الفور:

- كلا، لقد وقعت حينها ضحية عرضك السخي بالقيام بتلك الجلسة دون مقابل، ولكني لن أعاود تلك الكرة مرةً أخرى، أو حتى ادنو من عيادتك من الأصل، فأنا أخشى أن أكون قد تحدثت بأشياءٍ لا يفترض البوح بها.

فأجابه الطبيب بريمان بنبرةٍ هادئة:

- أؤكد لك أن ذلك لم يحدث يا أبتاه، فكل ما كنت تتحدث عنه هو الارهاق من العمل، وكيف أنك في أعماقك كنت تريد أن تصبح راقص باليه محترف.

حاول الطبيب بريمان إضفاء ملامح الجدية على وجهه، ولكن نظرات القس جوناس التشككية له، جعلته غير قادرٍ على الاستمرار في تلك المزحة ليفتضح أمره وينفجر ضاحكًا، بينما امتعض القس جوناس من تلك المزحة الصبيانية ليطيل الصمت وكأنه يفكر في شيءٍ قبل أن يعود قائلًا:

- جلسة تنويم أخرى! لا أعرف، مجرد سماع ذلك الاسم مجددًا يثير القشعريرة في جسدي، ويجعلني أخشى الإقدام على تلك الفعلة مرةً أخرى.

تنهد الطبيب بريمان في حنقٍ وكاد أن يتكلم...

لولا أن عاد النادل مرةً أخرى ومعه المشروبات التي طلباها منه، فتبدلت ملامح الحنق لديه على الفور بابتسامةٍ شاكرة للنادل، وبمجرد أن التفت راحلًا عنهما حتى عاد الطبيب بريمان ليقطب حاجبيه مرةً أخرى وهي يقول:

- لا أعرف لماذا التصق مصطلح التنويم في ذهن الناس بأنه فعل شرير؟! ثم أمسك بكأس الفودكا ليقربه من شفتيه وهو يهمهم: ربما بسبب مجال صناعة السينما الذي طالما صوره على أنه وسيلة بلهاء للتحكم بالبشر، ثم ارتشف رشفةً من الكأس ليعود قائلًا: ربما في تلك الحقبة المظلمة من تاريخ البشرية لا يؤخذ الطب النفسي بالجدية التي يستحقها، ولكن يومًا ما سوف يصبح الذهاب للطبيب النفسي شيئًا لا غنى عنه.

ابتسم القس جوناس بركن شفتيه، وهو يتحدث باستهزاءٍ:

- إذًا سوف يكون البشر حينها جميعًا مصابون بالجنون.

تحدث الطبيب بريمان على الفور، وهو يعترض على ما سمعه من القس جوناس:

- حسبك يا أبتاه، إن الطب النفسي ليس للمرضى العقليين فجميعنا لدينا بعض الاضطرابات النفسية على المستوى المقبول، والتي لم تتطور لترتقي لمستوى الصفة المرضية التي تستوجب العلاج، ثم حرك يده الممسكة بالكأس وهو يشير إلى أرجاء الحانة: أستطيع أن أبرهن لك أنه يوجد الآن شخص أو اثنان على الأقل في تلك الحانة، ممن يحتاجون للعلاج النفسي.

نظر القس جوناس إليه بنظراتٍ تنم عن الاستخفاف بما سمعه منه للتو، فوضع الطبيب بريمان الكأس على الطاولة بقوةٍ، ليقف حينها قائلًا في عجالةٍ:

- سوف أثبت لك هذا الآن، هيا بنا.

فرفع القس جوناس رأسه نحوه:

- ولكني لم انته من العصير خاصتي.

فحدثه الطبيب بريمان وهو يخطو من جانبه، متقدمًا للأمام:

- سوف نعود إليه مجددًا، هيا بنا.

قام القس جوناس ليتبع الطبيب بريمان الذي كان قد تقدمه ببضعِ خطواتٍ بالفعل، ولكنه سرعان ما عاد ليلتقط كوب العصير معه ويعود سريعًا له، بينما وقف الطبيب بريمان لينتظره وهو يتأمل الجميع من حوله بنظراتٍ متفحصة، ولم يلبث أن وصل القس جوناس إليه حتى حدثه باستنكارٍ وهو يقول:

- هل سوف تبني تحليلَك النفسي استنادًا على تصرفات من تراهم هنا؟!

فأجابه الطبيب بريمان وهو ثابت في مكانه، يتمعن النظر فيمن حوله دون أن ينظر إليه:

- صدقني إن أي نبذة حركية قد تكشف ما في الصدر والعقل من عِلّةٍ يا صديقي.

ثم صمت لثوانٍ معدودة ليشير بعد ذلك بيده نحو رجل كان يجلس على مقعدٍ خشبيٍ طويل من أمام طاولة المشروبات في الحانة، كان للرجل مظهر عادي بينما تبدو تصرفاته كشخصٍ طبيعي للغاية، ولكنه كان يقوم بفعلةٍ لن يلاحظها أحد سوى شخص متمرس، فهي لا تبدو للآخرين شيئًا يُذكر، ولكن كان للطبيب بريمان رأيًا آخر، فقد بدأ بالحديث للقس جوناس قائلًا:

- هل ترى الشخص الجالس على تلك الطاولة؟ الذي يقضم أظافره بأسنانه.*

- أجل أراه، ولكن ما الخطب فيما يفعله؟! فالكثير من الناس يقضمون أظافرهم بأسنانهم.

فحدثه الطبيب بريمان مجددًا:

- إن ما تقوله صحيح بالفعل ولكن ليس في تلك الحالة، هل ترى كيف ينظر للأمام مثبتًا ناظره في نقطةٍ واحدة، بينما ينقر الأرض بكعب حذائه في حركةٍ عصبية؟

- أجل.

* التفسيرات العلمية الخاصة بالأمراض النفسية، والعقلية الحالية، والتابعة والمنصوص ذكرها داخل الرواية تم مناقشتها ومراجعتها مع اللواء طبيب/ محمد رضا الفقي أستاذ الطب النفسي، والأعصاب بالأكاديمية الطبية العسكرية، بجمهوريه مصر العربية.

- إن ما يفعله الآن من قضمٍ لأظافره هي حاله نفسية وعصبية، وهي تصيب الأشخاص بسبب المعاناة من اضطراب نفسي قد يكون دائمًا كالاكتئاب أو مؤقتًا كالقلق والتوتر، والذي يُعتبر قضم الأظافر* من أهم اعراضه فيقوم الشخص بقضم أظافره لا إراديًا، حتى يتخلص من التأثير السلبي الواقع عليه، وقد يستمر قضم الأظافر لفترة زمنية غير محددة طالما أن العامل المؤثر ما زال موجودًا، وإن لم تتم معالجته في القريب فقد تصيبه أضرار دائمة لأصابعه*.

تحرك الطبيب بريمان بخطاه للأمام قليلًا وهو يتفحص المحيطين ممن حوله جيدًا، ليقف القس جوناس من خلفه لثوانٍ وهو ينظر بطريقةٍ عفوية نحو أظافر يده، ثم عاد ليتبع الطبيب بريمان للأمام، وبينما استمر الطبيب بريمان في فعلته حتى لفت انتباهه موقف ما، كانت هناك نادلة تحمل صينيةً موضوعًا عليها مشروبات تذهب لتضعها أمام الزبائن ثم تعود نحو طاولة

*الحالة المرضية لقضم الأظافر تُعرف باللغة الإنجليزية بالمصطلح العلمي (onychophagy)، أو الاسم الأكثر شيوع (Nail Biting).
*الأضرار الدائمة لمرضى قضم الأظافر، تكون تشوهات دائمة في الأظافر، وانغراز الأظافر في اللحم، وكذلك تلف الأنسجة المحيطة.

الحانة لتضع أخرى وتذهب بها مجددًا لطالبيها، راقبها الطبيب بريمان لدقائق بنظراتٍ متربصة، أشعرت القس جوناس نفسه بالارتياب من حملقة الطبيب بها، وأتت الفرصة السانحة لبريمان، حينما كانت النادلة على وشك المرور بجانبه وهي تمسك بصينيةٍ محملة بالأكواب، فاستوقفها في عجالةٍ محدثًا إياها:

- المعذرة!

نظرت إليه الفتاة منتظرة أن يستأنف حديثه، فسارع ليسألها:

- فلتغفري لي فضولي هذا، ولكن حينما تعودين بالصينية الفارغة وقبل أن تضعي عليها الأكواب الأخرى، لماذا تطقطقين بأصابعك مرتين في كل مرة قبل البدء مجددًا في وضع الأكواب اللاحقة عليها؟

نظرت الفتاة له لثوانٍ، وهي لا تفهم إلامَ يرمي، ثم حدثته وهي تهز كتفيها في لا مبالاةٍ لتجيبه:

- لا أدري، إنها طقس سخيف اعتدت فعله فهو يشعرني بالراحة لا أكثر.

فحدثها الطبيب بريمان مبتسمًا:

- حسنًا، اعتذر على ازعاجك.

لم تجب عليه النادلة بل بدأت بالتحرك سريعًا لاستكمال عملها، فالتفت الطبيب بريمان بعد ذلك ليحدث القس جوناس ووجهه مُزين بابتسامةٍ تملؤها الثقة، ليحدثه قائلًا:

- ما تفعله تلك الفتاة دون أن تشغل له بالًا هو أحد الأفعال القهرية لمرضى اضطراب الوسواس القهري*، فهو يدفعها للقيام بسلوكٍ متكرر تشعر بأنها مدفوعة لعمله في محاولةٍ لتخفيف التوتر لديها، وهذا ما تفعله هي من طقطقة بأصابعها قبل حملها للصينية مجددًا في كل مرةٍ.

اضطراب الوسواس القهري /obsessive compulsive disorder :هو اضطراب يتميز بنمط من الأفكار، والمخاوف غير المعقولة، (الهواجس) التي تدفعك إلى القيام بسلوكيات متكررة (قهرية). تتداخل هذه الهواجس، والسلوكيات القهرية، مع الأنشطة اليومية، ولكن من الممكن أيضًا أن تكون لدى المريض أعراض وساوس فقط أو أفعال قهرية فقط.

فتحدث القس جوناس في تأثر:

- يا لها من مسكينة.

فأجابه الطبيب بريمان:

- الأمر ليس سيئًا إلى هذا الحد صدقني، فالبعض لديهم درجات أكثر حدةٍ من هذا الاضطراب اللعين، فبينما تعاني هي من الأفعال القهرية فحسب، هناك بعض مرضى اضطراب الوسواس القهري مَن يعانون مِن الوساوس القهرية والأفعال القهرية معًا، فيمكن أن يصابوا أيضًا بوساوس قهرية تؤرق حياتهم، كأن يتبادر إلى ذهن أحدهم هواجس وأفكار غير مرغوبٍ فيها لتصيبه بالقلق والضيق، مثل أنه لم يغلق باب المنزل حين غادر، أو أنه قد ترك نيران الموقد مشتعلة، ثم أستطرد الطبيب بريمان حديثه الذي قارب على نهايته متحدثًا في أسى: وللأسف، قد يعيش مرضى اضطراب الوسواس القهري طيلة حياتهم، وهم لا يدركون أنهم مصابون به، أو أنه شيء يستدعي العلاج.

انتهى الطبيب بريمان من حديثه للقس جوناس ليجد علامات القلق والتجهم قد بدأت تتجلى على وجهه، فعاد ليسأله في فضولٍ:

- الأب جوناس! ما الخطب؟

فأجابه القس جوناس بنبرةٍ يغلب عليها التوتر:

- هناك أوقات كثيرة حينما كنت أغادر منزلي يُهيأ لي أني تركت صنبور مياهٍ ما مفتوح بالمنزل، وقد سهوت عن اغلاقه، فأُسرع عائدًا للتأكد من إحكام غلقها جميعًا، وأحيانا أنهض من مجلسي في وسط اليوم لأتحقق منها، ويصل الأمر إلى ضرورة ملامسة كل صنابير مياه المنزل بيدي للتحقق من إحكام غلقها حتى يرتاح ذهني وينصرف عنه انشغالي بالأمر.

وضع الطبيب بريمان يده على كتف القس جوناس في محاولةٍ للتهدئة من روعه وهو يحدثه:

- لا تقلق يا صديقي، فعلاج اضطراب الوسواس القهري ليس بالأمر الجليل، وأعِدُكَ أن أشفيك من أعراضه في القريب العاجل، ثم مازحه ضاحكًا وهو يقول:

- ولكن يبدو أنك سوف تَعْدِل عن قرارك السابق، وسوف تضطر للقدوم لعيادتي مرةً أخرى.

****

"أنا أُدعى ديفيد"

ترجل ديفيد على درجات سلالم المبنى السكني الخاص به ليتحرك نحو زاركن الذي كان يقف جانبًا مستترًا تحت جنح الليل، فدنا منه وهو يحدثه:

- حسنًا، لقد فعلت مثلما طلبت مني.

كان زاركن منذ قليلٍ قد طلب من ديفيد أن يرتدي أفضل ما يملك من ثياب، وبالفعل عاد ديفيد له مرتديًا بزةً أنيقة، ويعتليها مِعْطَفٍ باهظ الثمن كان يملكهما قديمًا قبل أن يتداعى به الحال، ليبدو كأحد رجال الأعمال الأثرياء.

تأمل زاركن ديفيد لثوانٍ، ثم حدثه قائلًا:

- حسنًا، أنت الآن قد تحضرت جيدًا للمهمة القادمة.

أمسك ديفيد بحواف المعطف الذي يرتديه وهو ينظر إلى زاركن مستفسرًا:

- ولكن ما جدوى هذا التأنق الزائد؟!

فَهَمَّ زاركن بالإجابة:

- إن المهمة التي أنت بصددها تحتاج لمثل هذا النوع من الخداع.

- ولكن كيف سوف أتمكن من مطاردة المخلوق والامساك به وأنا مقيد في تلك البزة؟!

- انصت جيدًا يا ديفيد إلى ما سوف أقوله، إن مهمتك في اصطياد تلك المخلوقات ليس المقصود بها مطاردتها في العلن، فظهورنا بهيئتنا الحقيقية أمام البشر في عالمهم؛ له عواقب وخيمة، قد تطيح بكل ما ننوي القيام به، ولذلك فسوف يكون لديك دائمًا مهمتين، المهمة الأولى، هي تقصي الحقائق وجمع المعلومات عن المخلوقات لمعرفة كيف ومتى تستطيع استدراجها بعيدًا عن أعين البشر، ومن يرافقها دومًا كستارٍ لها، والمهمة الثانية التي تليها، هي أن تقوم بقتلها دون علم أو رؤية أحد، خشية افتضاح أمرك وضياع خطتنا سُدى.

فسأله ديفيد مستفسرًا:

- مهلًا! ماذا تعنى بأني سوف أقتلها؟! أليس من المفترض أن أعيدها معي إلى الجحيم؟!

فأجابه زاركن وهو يشرح له:

- إن بقتلك إياها هنا، فأنت تقتل وجودها البشري على الأرض لا أكثر، ولكن سوف تعود أرواحها البائسة إلى الجحيم حيث تنتمي.

ثم دس زاركن يده في معطفه لتخرج ممسكةً بقِنّينتين، الأولى كانت قِنّينة صغيرة الحجم، شفافة اللون بداخلها مادةٌ حمراء، والقِنّينة الثانية كانت مماثلة للتي أعطاها له في المرة الماضية، فأمسك زاركن بيده الأخرى القِنّينة الأولى، وأعطاها لديفيد وهو يحدثه: إن الوميض الذي يتيح لك رؤية الجنس الشيطاني على حقيقته، يكشف أيضًا حقيقتك أمامه، مما سوف يجعله يلوذ بالفرار بمجرد الشعور بك في الجوار، ولكن داخل هذه القِنّينة ترياق صنعته بيدَّي، إنه يردع حدوث الوميض لك لفترة ليست بالقليلة لتصبح مثل باقي سائر البشر، فترة تكون كافية للتحاور مع تلك المخلوقات واستدراجها إلى موعدٍ ووقت يتيح لك تنفيذ بقية خطتك، ثم مَدَّ يدهِ الأخرى الممسكة بالقِنّينة الثانية، وهو يستطرد حديثه: وبالنسبة لقِنّينة التحول، فسوف تُعيدك لهيئتك الشيطانية لوقتٍ كافٍ لترى حقيقة المخلوق القابع أمامك، وتعيده إلى حيث ينتمي.

مَدَّ ديفيد يدَهُ ليأخذ القِنّينتين، ويضعهما في جيب معطفه، وهو ينظر له قائلًا:

- حسنًا، وما هو المخلوق الذي أنا على وشك مقابلته؟

فتحدث زاركن ليعلمه بما لا يعرفه قائلًا:

- إن المخلوق التي أنت بصدد زيارتها، هي إحدى مخلوقات "البلفاك"، تلك المخلوقة تتواجد في عالم البشر منذ فترةٍ طويلة، تتخفى وسطهم كإحدى فتيات الليل، وربما كان هذا هو العمل الأنسب لها هنا على الأرض فهو يتيح لها فرصة وضع صغارها في أمعاء ضحاياها، ولكنها دائمًا ما تختار الضحية الأنسب لهذه المهمة، فهي لن تغامر بفضح أمرها، ولذلك تختار ضحيةً لا تعيش في تلك الضواحي، مجرد زائر عابر لتلك البلدة جاء لعدة أيامٍ وسيرحل مجددًا، ولكنه قبل أن يغادر أوقعه حظه العسر بها، ثم أردف: وهنا تستغل البلفاك عملها جيدًا، فلعاب تلك المخلوقة يوقعك فيما يشبه الغيبوبة المؤقتة، لتستيقظ وأنت لا تتذكر شيئًا عن لقائك بها، ولا عن بيضِ صغارها الذي وضعته لينمو في أحشائك، فترحل بعد ذلك بأيامٍ بينما ينمو صغارها بداخلك، وصدقني لن تشعر بشيءٍ طوال تلك المدة، ربما سوف تشعر في بعض المرات أنك تناولت طعامًا فاسدًا أو شيئًا من هذا القبيل، حتى يحين الوقت، فيشُق صغارها طريقهم من داخل الجسد البشري لكي يخرجوا إلى العالم الجديد.

فسأله ديفيد:

- وكيف يستطيع الصغار العيش بدون أمهم؟

- لا تقلق، فصغار البلفاك يستطيعون تولي أمر أنفسهم جيدًا، ثم اقترب ليمسك بيديه كتفي ديفيد وهو يحدثه: وهنا تأتي مهمتك في وضع نهاية للحياة البشرية التي تعيشها تلك المخلوقة التعسة، ولكن اليوم كل ما عليك فعله هو مقابلتها وتدبير لقاء بينكما، يتيح لك الانفراد بها والإجهاز عليها في سريةٍ تامة، ولكن تذكر ألا تقع في غوايتها فمجرد قبلةٍ واحدةٍ منها وسوف تصبح المُضيف الجديد لصغارها القادمون، ثم أخرج حفنة ليست بالقليلة من المال، من فئة العملات الكبيرة وهو يعطيها له ومعها ورقة مُدَون عليها عنوانٍ ما قائلًا: اذهب إلى هذا المكان واعثر على فتاةٍ تُدعى "سيلفيا"، إنها تستتر وراء جماعة من العاهرات تُدعى جماعة "التنورة الحمراء"، اعثر على تلك الجماعة وسوف تعثر عليها حتمًا.

أخذ ديفيد الورقة في يده، وأمعن النظر بها لثوان، ثم أخذ المال من زاركن وهو ينظر إليه بتعجبٍ ليسأله:

- وما حاجتي لكل هذا المال؟

فأجابه زاركن وهو يشير نحو المال الذي يمسكه ديفيد:

- هذا المال كافٍ لتطويع الصعاب من أمامك، وجعل الجميع ينصاع لطلباتك أيًا كانت، خُذْه، فسوف يُسَهِل عليك الكثير من الأمور.

أومأ ديفيد برأسه لزاركن، ثم التفت ناحية الشارع ليستوقف أحد مركبات الأجرة ويدلف بداخلها لتبدأ بالتحرك نحو وجهته القادمة، سارت مركبة الأجرة لوقتٍ ليس بالقليل مما سنح لديفيد بتناول الترياق حتى يبقى بعيدًا عن أعين مخلوقات عالمه، واسترجاع حديثه السابق مع زاركن في ذهنه مرةً أخرى، لتتمهل المركبة بعد ذلك عند مقترب شارع يدعى بـ "حارة كالاهان"، وبمجرد توقف السائق بالمركبة حتى حدث ديفيد قائلًا:

- لقد وصلنا يا سيدي.

لاحظ ديفيد نظرات الرجل له في المِرآة والتي أشعرته بأنه قد تمت إدانته بمجرد طلبه للمجيء إلى هذا المكان الشهير والذي يأتيه راغبي المتعة المحرمة، فترجل من المركبة وهو يتأمل عمود الإنارة بضوئه المرتعش المثبت أسفله لافتة صغيرة مكتوب عليها اسم الشارع.

- "حارة كالاهان"، بل كان بالأحرى أن يُكتب "حارة كالاهان الشبق".

استهزأ ديفيد بتسمية الحارة في ذهنه و هو يمرر عينيه نحوها، ثم بدأ بالتحرك صوب الشارع، فأخذ يتأمل المكان من حوله وهو يتوغل بداخله أكثر مع كل خطوه يخطوها، كان قد مر بجانبه منذ بضع ثواني شخص يبدو عليه ملامح الثراء يتحرك مغادرًا هذا المكان، بينما كانت ملامح الخزي تملأ وجهه الذي حاول جاهدًا اخفاءه وهو يمر من جواره، ولكن بالفعل كان يصعب رؤية وجه الرجل فجميع أعمده الإنارة في هذا الشارع كانت مهشمة، وكأن الشارع يحاول اخفاء عاره هو الآخر، ولكن ما كان يُلقي الضوء في الشارع قليلًا كل عدة أمتار، هو أضواء نيران الحطب المشتعلة والتي كانت تكفي فقط أن تتبين بصعوبة ملامح من ترغبها وتحصي النقود التي سوف تدفعها لأجلها، وما زاد من الأمر سوءًا هو رائحة العطن التي كانت تغزو المكان، وكأن هذا المكان يحتاج لمزيد من النفورِ.

وبعد عدة خطواتٍ أخرى وجد ديفيد أمامه فتاتين تقفان بجوار جدار أحد المباني، غير مباليتين برجل سكير أشعث، متسخ الوجه والملابس يقف بجانبهما يتغزل في مفاتنهما، وكلما توغل ديفيد داخل الشارع أكثر، كلما كثرت الوجوه الآثمة والرائحة المُنَفِرَة للمكان، فاستمر ديفيد في خطاه حتى تسمر في مكانه بغتةً دون حراك، بعد أن لاحظ ظِلًا لشكل غريب الوصف،

ينطلي من أحد الأَزِقَة التي سوف يتقاطع طريقها مع طريقه بعد عدة خطواتٍ لاحقة، فوقف ينظر بارتياب نحو هذا الظل والمنعكس بحركةٍ متمايلة على الأرض إثر خلفية أضواء بعض الحطب المشتعل، ليبدو وكأنه ظلال أحد تلك المخلوقات التي خرجت لتوها من باطن الجحيم.

بدأ التوتر يتملك ديفيد أكثر فأكثر، بينما أخذت القرارات المختلفة للخطوة القادمة تتطاير داخل عقله، هل يتناول ترياق التحول ويباغته بالهجوم؟ هل يتراجع مبتعدًا ليغادر الشارع، ويعود في يومٍ آخر؟ ماذا إن أخذ الترياق وهزم هذا المخلوق، ولكن افتضح أمره من أحد المارة؟

وحينها عزم أن يأخذ قرارًا مختلفًا، حيث أمسك إحدى الصخور المتواجدة على الأرض، وأحكم قبضته عليها وخطا سريعًا لداخل الزقاق، رافعًا يدَه الممسكة بالصخرة للأعلى، استعدادًا لتهشيمها فوق رأس ذلك المخلوق، ولكنه حينها فوجئ برجلٍ وامرأة ملتحمان جسديًا في صمتٍ.

جزع الرجل والمرأة من هجوم ديفيد المباغت عليهما، ظنًا منهما أنه شخصًا مجنون يحاول قتلهما ليندفع الاثنان مبتعدين عن بعضهما وقد تعثر الرجل وهو يتراجع للخلف ليسقط على الأرض، بينما ركضت الفتاة وهي تصرخ

مبتعدةً عنه لينهض الرجل من الأرض بعد ذلك وهو يحاول اللحاق بها، بينما يحاول اعاده سرواله إلى الأعلى مجددًا.

تابع ديفيد المشهد الهزلي من أمامه في هدوء لثوانٍ، ثم تحرك مرةً أخرى ليُكمل طريقه، فوجد على أحد الجدران من أمامه رسمًا بفرشاة دهانٍ لتنورةٍ حمراء فأدرك أنه قد اقترب من المكان الذي تتواجد به سيلفيا، وبعد خطوتين أو ثلاث مر ديفيد بجوار عدة ساقطاتٍ، الكل يعرض نفسه عليه ولكنه يعزف عنهم سائلًا إياهم عن فتاة تُدعى سيلفيا فيعزفون بدورهم عن مساعدته، ولكن في النهاية حالفه الحظ بعد أن أشارت له إحدى الفتيات نحو فتاةٍ سمراء اللون ذات قوامٍ جذاب، ترتدي فستانًا أحمر اللون، تقف في إحدى جوانب الشارع من بعيد قائلة له إنها صديقة سيلفيا المقربة.

فتحرك ديفيد مجددًا قاصدًا إياها، وبمجرد أن لاحظت الفتاة المنشودة اقتراب ديفيد منها، حتى بدأت تستعد لعملها القادم.

- عمتِ مساءً سيدتي.

حدثها ديفيد حينها بنبرةٍ هادئة، لتجيبه قائلة:

- مرحبًا عزيزي.

خرجت الكلمات من شفتي الفتاة ببطءٍ مصطنع وبأعين ناعسة، وكأنها إحدى الطرق الغريبة التي تُستخدم في الإغواء لديها، فابتسم ديفيد وهو يسألها:

- هل يمكنكِ مساعدتي؟

دنت الفتاه نحوه بخطواتٍ هادئة أشبه بالتمايل، بينما أخذت أناملها تداعب أَزِرّة قميصه، وهي تتحدث بنفس الطريقة لتجيبه:

- لا تقلق، يمكنني مساعدتك في أي شيءٍ.

تراجع ديفيد للخلف قليلًا، وهو يشعر بالحرج ليردف قائلًا:

- إني أبحث عن سيلفيا، هلا دللتني عن مكانها؟

تلاشت حينها آمال الفتاة، وتبددت معها كل أفعالها الزائفة، نبرتها، وقفتها، وحتى نظراتها، لتجيبه في سخطٍ:

- لا أعرف أين هي، فلتبحث عنها بنفسك.

رمقها ديفيد بنظرة تعجب إثر حديثها الغاضب له، ثم تحرك في هدوءٍ تاركًا إياها خلفه، ولكن لم يتجاوز بضع خطواتٍ حتى قررت الفتاة محاولة

استقطابه مجددًا، فأسرعت الخطى نحوه واضعة يدها على كتفه من الخلف ليستدير في هدوء فوجدها تضع يدها على صدره مجددًا، وقد عادت لأسلوب اغوائها المصطنع ثانيةً، قائلة في أنوثة:

- إن سيلفيا قد خرجت لتلبية رغبات أحد الزبائن، ثم دنت منه أكثر لتهمس في أذنهِ بصوتٍ خافت وهي تتابع: ولكن لا تقلق، فأنا أستطيع فعل كل ما تريده من سيلفيا وأكثر.

ابتعد ديفيد بوجهه قليلًا عنها، محاولًا إخفاء حمرة وجهه من الخجل لما قالته، ولم يعتد على سماعه، ليجيبها:

- أشكرك، ولكني أُفَضِّل انتظارها لحين عودتها.

لم يُثن حديثه اصرارها في محاولة عدوله عن انتظار سيلفيا والظفر به، ففتحت فاها لتبدأ بالحديث مجددًا لتقول:

- إنها لن تعود حتى...

- لقد سمعت أنك تبحث عني.

توقفت الكلمات في حلق الفتاة بعد سماع صوت سيلفيا الآتي من خلفها، لتستأنف ما تقول بطريقة ساخرة:

- ها قد عادت سيلفيا.

وهنا ألقى ديفيد بنظرته الأولى نحو سيلفيا، هل يُعقل أن يقبع وراء هذا الجمال مخلوق دميم؟! حدث نفسه بذلك وهو يتأملها بعينين متلهفتين، كانت سيلفيا تمتلك من الجمال ما يُثري الروح، بيضاء كثلج الشتاء ذات شعر أحمر كالجمر المتطاير من اللهب، لديها ملامح طفولية للغاية تُشعرك كأنك أمام أحد أبرأ نساء هذا الكون.

التفتت الفتاة نحو سيلفيا حينها وهي تبتسم ابتسامة يعلوها التوتر قائلة:

- سيلفيا عزيزتي، لقد كان هذا السيد المهذب ينتظرك بفارغ الصبر.

فاقتربت سيلفيا نحوها واضعة وجهها في مواجهة صديقتها وهي تنظر صوب عينيها قائلة بابتسامة:

- اشكركِ على محاولة الترفيه عنه حتى مجيئي.

ثم عبثت ملامحها وهي تستطرد الحديث بنبرةٍ أكثر جديةً:

- والآن اغربي عن وجهي.

أومأت صديقتها رأسها وهي تبتسم لها بابتسامةٍ صفراء، وبدأت بالتحرك مبتعدةً عنهما، فانتظرت سيلفيا حتى ابتعدت صديقتها قليلًا، ثم تقدمت نحو ديفيد بينما ما زال التحفز جليًا على وجهها جراء حديثها مع صديقتها، فحدثها ديفيد مازحًا:

- أشعر بأني كنت على وشك رؤية إحدى النِزَالات بالأيدي، صمت لثوانٍ قبل أن يستطرد: ألستما صديقتين؟

فأجابته سيلفيا وهي تحاول استعادة هدوئها:

- نحن نعمل في مهنة البغاء يا عزيزي لا يوجد صداقة بين العاهرات، ثم صمتت للحظات وهي تتأمل هيئته الأنيقة وملابسه الباهظة لتنظر في عينيه بنظراتٍ شهوانية وهي تحدثه: أنا لم أرك في الجوار من قبل، أنت غريب عن هنا أليس كذلك؟

- في الواقع إن تلك هي المرة الأولى التي آتي إلى هذه البلدة، وقد حدثني أحد أصدقائي عنكِ بشغفٍ لم أعهده به من قبل مما جعلني أشعر بالشغف لرؤياكِ أيضًا، ثم صمت لوهلةٍ قبل أن يردف: فقررت المجيء إلى هنا في القريب لمقابلتكِ، حيث إنني سوف أغادر البلدة بعد يومين على الأكثر.

- إذًا فهذا من حسن حظي أن ألقاك.

ابتسم ديفيد لهذه المجاملة الزائفة، وهو يعلم سر سعادتها الحقيقي، فها قد أُتيح لها شخصًا سوف تتمكن من نقل بويضاتها من خلاله إلى مكانٍ آخر بعيدًا عن هنا.

عادت سيلفيا إلى حديثها المعسول مرةً أخرى وهي تمسك يده في يدها، لتبدأ في التحرك للأمام وهي تحدثه:

- والآن هلا ذهبنا من هنا، أين تسكن يا عزيزي؟

ظل ديفيد متسمرًا في مكانه دون حراكٍ، فالتفتت إليه مجددًا لا تفهم سبب وقوفه، فتحدث ديفيد حينها:

- هذه هي المشكلة، فأنا لا أستطيع الذهاب إلى المنزل الذي أقيم به أو حتى استئجار غرفةً في نزلٍ ما، ثم أعرض عن الحديث لبرهةٍ، قبل أن يردف معللًا السبب: إني أعمل في جهة دبلوماسية، وقد جئت مع الكثير من زملائي بالعمل، ولن أستطيع الذهاب بك إلى منزل صديقي الذي يستضيفني، ولن أذهب إلى أي فندقٍ كذلك، خشية مقابلة أحدًا يمكنه التعرف علي.

نظرت سيلفيا حولها في المكان، وكأنها تحدث نفسها:

- ولكني لا أظنك من النوع الذي سوف يناسبه الأَزِقَة.

ابتسم ديفيد في قرارة نفسه وهو يجيبها داخل عقله: " كذلك لن يناسبك الأَزِقَة أيتها اللعينة" فبدأ حديثه مجددًا مقترحًا الحل:

- ما رأيك أن نتدبر لقاءً لاحقًا في منزلك؟

رمقته سيلفيا باستنكار وهي تجيبه:

- بالطبع لا، هذا مستحيل.

- سوف أدفع لكِ ما تريدين وأكثر.

أطالت سيلفيا الصمتَ للحظاتٍ، وكأنها تفكر ثم عادت للحديث مجددًا:

- هناك عدة عوائق تمنع ذلك التدبير، أولًا، أني لا اصطحب زبائني إلى منزلي على الإطلاق، ثانيًا أنا أسكن في ليون وهو حيٌ بسيطٌ، ولا أحد به يعلم بأني أمارس البغاء، والسبب الثالث هو أني لا أسكن وحدي، فلدي خليلةٌ في السكن، وهي ستمانع وجودك دون شكٍ.

دَنا ديفيد منها، وعلى وجهه ابتسامة مليئة بالثقة ليجيبها:

- بالنسبة للسبب الثاني، فيمكنني القدوم في وقتٍ متأخرٍ من الليل، بعد أن تكون امتلأت الجفون بالنوم، وبالنسبة للسبب الثالث، فيمكننا اعطاء خليلتك المال الكافي لاقناعها بالمبيت في مكانٍ آخر تلك الليلة، وأما بالنسبة للسبب الأول... ثم صمت ليدس يده في الجيب الداخلي لمعطفه ليَخرج بها ممسكًا بحفنةٍ كبيرة من الأموال، وهو يستطرد الحديث: فيمكنك اعتباري صديقك الغني الذي سوف يغدق عليكِ المال حين يلقاكِ، وقد جاء ليودعكِ قبل رحيله ولن تردي له طلبه.

يبدو أن المال قادرٌ على اقناع أعتى الوحوش أيضًا، فها قد لمع بريق المال في عيني سيلفيا، وكأنه كان السبب في تبدد التردد والعوائق التي وضعتها أمامه، فأطل ديفيد بجسده نحوها أكثر من ذي قبل ليفصل جسديهما مساحةٌ بالكاد تكفي لمرور الهواء من بينهما، لينظر في عينيها وهو يردف حديثه بنبرةٍ شهوانية:

- فلتأخذي وقتكِ في تطويع الصعاب التي تمنع لقاءنا، وسوف أذهب الآن وآتي لمنزلك في الغد عند الساعة الواحدة صباحًا، غدًا أعَدُكِ بليلةٍ لن تنسيها.

دنت سيلفيا منه أكثر لتحجب مرور الهواء من بينهما وهي تبتسم هي الأخرى قائلةً:

- لقد كنت انتظر مجيء شخص مثلك منذ فترة طويلة، غدًا أعِدُكَ أني سوف أترك معك من الذكريات ما سوف تتذكرني بها طيلة حياتك.

كان ديفيد يعي جيدًا ما تقصده هذه المخلوقة بقولها هذا، ولكن غدًا لن يكون لها وجود هنا، فهي مجرد أولى خطواته في الوصول لما يريد، فهو لا يمانع من قتل القليل منهم لكي يحكم ما تبقى منهم، فلا شيء سوف يقف في طريقه لكي يعود مجددًا إلى وطنه الحقيقي، ويحصل على حقه الشرعي في الجحيم.

الفصل الثالث

"منزل آل جرين"

الساعة الآن قد قاربت على الثالثة عصرًا، كان الرجل جالسًا على الأريكة يُطالع إحدى الصحف، في انتظار زوجته ريثما تعود من العمل، نظر متأففًا إلى ساعة يده ثم عاد ليستأنف ما يفعله، التفت جانبًا بعد قليل علي صوت الباب وهو يُفتح وزوجته تدلف إلى المنزل، كانت علامات الإرهاق جلية عليها حينما مرت بجانب زوجها وهي تترنح في خطاها، وما أن وصلت إلى أحد المقاعد بجواره حتى ألقت بجسدها المتعب عليه لتُلقي بحقيبة يدها

جانبًا، وترفع رأسها للأعلى وهي مغمضة العينين، وكأنها تتنفس الصعداء من عناء يومٍ طويل، ثم حدثته حينها قائلة:

- سوف أرتاح قليلًا، ثم أُعد لك الطعام يا عزيزي.

أثنى الرجل الصحيفة من يده قليلًا لينظر إلى وجه زوجته الذابل، ويحدثها بنبرةٍ قلقة:

- يبدو عليكِ الوهنُ الشديد، هل أنتِ على ما يرام؟

فأجابته:

- لقد أصابني الإغماء أثناء عملي اليوم.

ترك الرجل الصحيفة جانبًا لينهض سريعًا من مجلسه ويجثو على ركبتيه بجوار مقعد زوجته، ثم رفع يده للأعلى ليداعب شعرها بيديه قائلًا في حنانٍ:

- سلامتكِ يا عزيزتي، فلتأخذي عطلةً من العمل غدًا، ولنذهب للطبيب لنعرف ما عِلتُكِ.

فأجابته مبتسمةً:

- لا داعي لذلك، فأنا أشعر أني على ما يرام الآن، ثم استطردت قائلة بنبرةٍ تهكمية: أعتقد أنه بسبب الإرهاق الزائد فأنا لم أعمل لسنوات منذ أن تزوجنا، حين كنت أنت من تعمل وتُعيلُنا، ولكن باتت تلك المهمةَ الآن على عاتقي بينما أنت جالس هنا في البيت.

انزعج الزوج مما سمعه من زوجته، حيث علم جيدًا إلى ما سوف يؤول إليه هذا الحديث ولكنه لم يظهر شيئًا مما في داخله، بل حاول طمأنتها بهدوءٍ:

- لا تقلقي، أشعر أنهم سوف يتصلون بي في القريب، أنا أعلم أنهم لن يستطيعوا الاستغناء عني، فهم يعرفون قيمتي جيدًا.

حينها اعتدلت الزوجة في جلستها لتحدثه قائلة:

- عزيزي، أريد أن أُحَدِثُكَ في أمرين.

نظر لها الزوج بامتعاضٍ، فيبدو أنه لا فرار من الحديث الذي كان يحاول تجنبه منذ الوهلة الأولى، فتنهد قائلًا:

- حسنًا، ما الذي تريدين أن تحدثيني به؟

فأجابته:

- أنت دائمًا حبيس المنزل نادر الخروج منه، لماذا لا تحاول الخروج والتنزه قليلًا، أو أن تتصل ببعض الأصدقاء لتخرجوا سويًا؟!

فأجابها معللًا:

- لم يعد لي أصدقاء يا عزيزتي، لقد نجح هؤلاء الملاعين بفض كل من حولي عني ليضعفوني أكثر فأكثر، حتى تسنح الفرصة لهم كي يقتصونني، وأنا لن أخرج للتنزه بمفردي، فأنا لا أعرف من يتربص بي منهم بالخارج ينتظر اللحظة المناسبة لينهي حياتي، ثم أمسك يديَ زوجته بكفيه، قائلًا بحنانٍ:

- لم يعد لي أصدقاء، لم يعد لي أحد، كل ما تبقى لي هو أنتِ.

نظرت إليه زوجته في صمتٍ مكتفيةً بابتسامة رقيقة ارتسمت على شفتيها، وهي تشعر بالسعادة من حديث زوجها لها، فعاد زوجها ليسألها:

- وما الأمر الآخر الذي كنتِ تريدين أن تحدثيني به؟

فاضطربت حينها ملامح وجهها وهي تجيبه:

- لا شيء يا عزيزي، لا شيء.

تعجب الزوج من ردة فعل زوجته فقد كان جليًا أنها تريد أن تحدثه بأمرٍ ما، ولكنها قررت أن تعدل عن البوح به في اللحظة الأخيرة، فأعاد مجددًا الزوج السؤال على مسامعها بإلحاحٍ أكثر، وحينها حاولت الزوجة العزوف عن قول ما تريده مجددًا ولكنها قررت في النهاية البوح بمكنونات صدرها، فالتفتت جانبًا لتحضر حقيبة يدها التي بجوارها وتفتحها، ثم أخذت منها ورقةً مطوية إلى نصفين واعطته إياها، فأخذها منها ليفردها ويلقي النظر على ما تحتويه، وما أن انتهت عيناه من تفحص الورقة، حتى استشاط الغضب بوجهه ورفع جبهته ناظرًا أمامه، مُطيل الصمت دون أن ينبس بكلمةٍ.

فتحدثت زوجته إليه على الفور بنبرةٍ متوترة:

- إنها ورقة إعلانية توزع باليد، كان هناك شاب يعطيها للمارة في الطريق، وأعطاها لي.

ساد الصمت على المكانِ لثوان وهي تترقب إجابة زوجها، ليلتفت الرجل لها بوجهه وهو يتحدث بنبرةٍ مستنكرةٍ تمتزج بنغصة حزنٍ:

- هل هذا ما تخالينه بي؟ شخصٌ معتوه!

زادت كلمات زوجها من حدة توترها، فحدثته بكلماتٍ خرجت من فمها متلعثمةً وهي تشرح ما تعنيه:

- أنا لم أقل ذلك، كل ما أقوله هو... أن نذهب إليه سويًا ونتحدث معه قليلًا، ولن نخسر شيئًا.

هبَّ زوجها واقفًا من جثوته، فانتفضت فزعةً حينها، ليصيح بها غاضبًا:

- لماذا لا تستطيعين تصديقي، لقد قلت لكِ أني أستطيع رؤيتهم على حقيقتهم دون غيري، ثم شرد قليلًا وكأنه فَطِنَ لأمرٍ ما، قبل أن يردف: وربما لهذا يحاولون إنهاء حياتي لإسكاتي، حتى لا أفضح أمرهم لأحدٍ، ثم أفاق من شروده ليلتفت إليها ويُحدثها بنبرةٍ يملأها الحزن وخيبة الأمل:

- كنت أعتقد أنكِ الوحيدة التي تصدقينني، ولكن يومًا ما سوف تظهر الحقيقة، وحينها لن أغفر لكِ.

لم تدرِ زوجته ماذا تقول له فقد شعرت أنه قد خاب ظنهُ بها، ولكنها كانت تريد له الأصلح، فما يتفوه به زوجها هو دربٌ من الجنون، وهي تحاول أن تساعده ليعود إلى رشده، ولكنها خشيت أن تصارحه علنًا بما تفكر به،

فيكفيها ما رأته به بسبب تلميحاتها، فما أدراك إن أفصحت عن رأيها الصريح في هذا الشأن، لقد باتت حقًا لا تعرف ماذا تفعل أو تقول!

لم تمر ثوانٍ معدودة على ما تفكر به حتى وجدت زوجها يقذف الورقة في الهواء ويندفع بقوةٍ نحو السلم الذي يؤدي للطابق الثاني، فنهضت من مجلسها لتحاول اللحاق به لتعتذر له عما بدر منها في حقه، تاركة الورقة على الأرض، والتي ندمت على احضارها معها إلى المنزل اليوم.

استقرت الورقة على الأرض لتُعرب عما تحتويه، كانت الورقة عبارة عن ورقة إعلانية تُستخدم في الدعاية، موضوع بها صورة شخص ما في العقد الخامس، أشيب الشعر والذقن، يتوسط وجهه نظارة طبية، ويرتدي بزةً أنيقة، بينما كُتِبَ عنوان ما ورقم هاتف، يعلوهما جملة كُتِبَتْ كالآتي "عيادة الطبيب هانسل بريمان، للأمراض النفسية والذُهانية".

****

"الطبيب بريمان، للأمراض النفسية والذُهانية"

تصاعدت أبخرة ثائرة من إناء الشاي معلنة انتهاء غليان الماء به، فاقترب الطبيب بريمان ليمسك الإناء في عجالةٍ ويصبه داخل القدح الخاص به وهو يهمهم بترنيمة هادئة، حينها تنامى إلي مسمعه صوت شخص يطرق باب منزله، فتحرك بخطوات عاجلة من المطبخ ليفتح الباب، ليبصر بروفيسور هادسون، ففتح الباب على مصرعيه وهو يحدثه بترحاب:

- مرحبًا بروفيسور هادسون، تفضل.

فحدثه باستحياءٍ وهو يدلُف قائلًا:

- أشكرك، اعتذر عن المجيء باكرًا قبل الموعد المحدد لي، وبمجرد أن تقدم خطوتين للداخل حتى التفت نحو الطبيب بريمان ليستطرد حديثه:

- أتمنى ألا أكون قد قاطعتك عن شيءٍ.

فأجابه الطبيب بريمان بابتسامةٍ هادئة:

- لا يوجد داعٍ للاعتذار على الإطلاق، لقد كنت على وشك إعداد قدحًا من الشاي، هلا شاركتني؟

- هذا شرفٌ لي.

أجابه بروفيسور هادسون وهو يتجه صوب غرفة الكشف بحركةٍ بديهية، إلا أن الطبيب بريمان قد استوقفه وهو يشير له نحو ردهة المنزل قائلًا:

- لنحتسِ قدحيَ الشاي في الردهة، تفضل من هنا.

تحرك الطبيب بريمان ليتبعه بروفيسور هادسون إلى الردهة، والتي كان بها مقعدان خشبيين، وأريكه أثرية، ويتوسطهما منضدة خشبية أنيقة التصميم، فجلس بروفيسور هادسون على أحد المقعدين، بينما أسرع الطبيب بريمان الخُطى عائدًا إلى المطبخ ليبدأ بإعداد قدحًا آخر لضيفه.

مرت ثوانٍ من انتظار بروفيسور هادسون في الردهة وحده وحينها سمع صوت الطبيب بريمان وهو يحدثه من المطبخ ليسأله:

- كم ملعقة من السكر تريد؟

- اثنتان من فضلك.

- لك ما تريد.

عاود الطبيب بريمان المجيء من المطبخ وهو يمسك بصينية من النحاس وفوقها قدحان من الشاي، وهو يتقدم بخطوات متروية حتى وصل إلى المنضدة، ثم وضع عليها الصينية وجلس على المقعد المجاور لبروفيسور هادسون.

استند الطبيب بريمان للأمام وهو يمسك قدح الشاي ويعطيه لبروفيسور هادسون، ثم عاد ليلتقط قدح الشاي خاصته وهو يحدثه قائلًا:

- لقد أردت أن نتناول الشاي هنا لنتجاذب أطراف الحديث قليلًا، قبل أن نبدأ جلستنا.

فنظر إليه بروفيسور هادسون بابتسامة ترحاب لما قال.

فعاد الطبيب بريمان للحديث قائلًا:

- ما هو مجال عملك بالتحديد بروفيسور هادسون؟

فأجابه:

- أنا امتهن التدريس في جامعة "ستونز" ببلدة " كولشيستر".

- حقا؟! في أي مجال؟

- أنا أقوم بتدريس علم الشياطين.

تعجب الطبيب بريمان من التخصص الذي قد وقع اختيار بروفيسور هادسون عليه ليمتهنه، فسأله مجددًا:

- علم الشياطين؟! ولم اخترت هذا المجال بعينهِ؟ أعني أنه مجال ليس متعارف عليه من الجميع، بل قِلَّة من يبتغونه.

فأجابه بروفيسور هادسون:

- إنه شيء يجري في دماء العائلة، فوالدي كان يُدَرِس في هذا المجال وكذلك كان جدي من قبله.

- ولكن ليس بالضرورة أن يعني ذلك أن تحبه مثل أبيك وجدك.

فحدثه بروفيسور هادسون مُعَلِلًا:

- أنت على حق، ولكن كان الوضع مختلفًا بالنسبة لي، فلقد كان والدي يشاركني منذ الصغر حبه وشغفه لهذا العلم، وما يحتويه من ألغاز وأسرار، فبينما كان الأطفال يلعبون مع أبائهم لعبة الغميضة، كنا نلعب سويًا لعبة المخلوقات الشيطانية، وبينما كان الأطفال يرسمون مع أبائهم الأنهار والجبال، كنا نرسم سويًا صور لبوابات الجحيم.

انتهى بروفيسور هادسون من حديثه ليجد نظرات الاندهاش مرسومة على وجه بريمان، والذي لم يلبث وأن حدثه وهو عاقدًا حاجبيه في تعجبٍ.

- يبدو لي أنها كانت طفولة مريرة.

فابتسم بروفيسور هادسون وهو يجيبه:

- بل على النقيض، لقد كانت طفولتي سعيدة للغاية مع أبي وأمي، على الرُغم من أني اعترف أننا كنا نبدو لبعض الناس غريبي الأطوار ولكن صدقني، لن أبادل طفولتي بأخرى إن عاد بي الزمن مهما حدث.

- ولكن لماذا قررت أن تمارس مهنة التدريس؟ بينما كان من الممكن أن تكون مجرد هواية لك.

- لقد كنت في صغري معتادًا على حضور بعض المحاضرات والندوات التي يرأسها والدي، وكنت أُبصر الإعجاب الشديد في أعين الحضور الذين يستمعون له ويَنْهَلون من علمه، وحينها عقدت العزم على أن أصبح مثل والدي وانقل هذا العلم المهدور حقه إلى من يريد معرفته، ثم أشار بإصبعه نحو رأسه، واستطرد حديثه قائلًا:

- إن بداخل هذا العقل مئات الكتب التي تُبحر بداخله دون مرسى لها، أنا أعرف بواطن هذا العلم مثل راحة يدي.

أُعْجِبَ الطبيب بريمان بنبرة الثقة المتجلية في حديث بروفيسور هادسون عن شمول معرفته بمهنته وحبه لها، فعاد ليحدثه قائلًا:

- لقد قرأت قليلًا عن هذا العلم منذ سنوات ماضية، لقد أثارني الفضول في البحث عن معلومات تخص مخلوق يدعى "الويندیجو"* فحينما كنت أعمل في مصحة الأمراض النفسية والذُهانية، صادفت حالة مرضية تعاني من مرض يدعى "ذهان الويندیجو"*، وقد سُمِيَ بذلك لارتباطه بمسمى هذا المخلوق.

---

*الويندیجو/ The windigo: هو مخلوق شيطاني من فلكلور قبائل أمريكا الشمالية، ذو شكل وحشي مرعب، يهيم في الصحاري والغابات والجبال المقفرة، لاصطياد البشر والتهامهم في فصل الشتاء القاسي، المرجع: مقال بعنوان "The Cannibal Talking Head: Portrayals of the Wendigo 'Monster' in Popular Culture and Ojibwe Traditions". صدر عام ٢٠١٥ في جريدة Journal of Religion and Popular Culture للكاتب Brady DeSanti .

*ذهان الويندیجو/ The windigo physio: هو مصطلح طبي لشكل من أشكال متلازمة الثقافة المرتبطة، وهو مزيج من الأعراض النفسية والجسدية، تجعل لدى المريض الرغبة الشديدة في اللحم البشري، كان يُعزى هذا المرض في تلك الثقافة إلى وجود مخلوق شرير يدعى "الويندیجو" والذي يحول ضحاياه إلى آكلي لحوم بشر، المرجع: المقال الأكاديمي بعنوان:

The Windigo Psychosis: Psychodynamic, Cultural, and Social Factors in Aberrant Behavior" "و الذي صدر عام ١٩٧١ في جريدة American Anthropologist للكاتب Thomas H.HAY.

ثم أطال الصمت، وكأنه يتذكر ما حدث ذلك الحين ليستطرد حديثه مجددًا:

- حينها ازداد فضولي حيال معرفة المزيد عن تلك المخلوقات ولكن لم تتسن لي الفرصة لأقرأ عنها مجددًا، ثم نظر إلى بروفيسور هادسون ليسأله:

- هلا تكرمت وأعرتني أحد تلك الكتب؟ أريد أن اقرأ وأعرف المزيد عن هذا العلم الغامض.

فأجابه بروفيسور هادسون وهو يبتسم قائلًا:

- بالطبع لا توجد مشكلة، سوف آتي لك بأحدهم المرة القادمة.

أومأ بريمان برأسه معبرًا عن امتنانه، ثم نظر إلى الساعة في يده ليجد أن الوقت قد داهمهما وتعدى الموعد المقرر للجلسة، فتحدث بروفيسور هادسون في عجالةٍ من أمره قائلًا:

- لقد سرقنا الوقت في الحديث وقد تأخرنا عن موعد الجلسة، اعذرني إن قاطعت حديثنا، ولكن يجب أن نبدأ الآن حيث لدى موعدان تاليان بعد ذلك، ثم عاد ليستأنف الحديث والابتسامة على وجهه: ولكن لحديثنا هذا بقية.

****

"أنا أُدعى ديفيد"

ها قد جاء اليوم المرتقب، الساعة الآن قد جاوزت الثانية عشر والنصف صباحًا، كانت الأمطار تهطل بغزارةٍ لتغرق الأرصفةَ والشوارع، تحركت مركبة أجرة داخل أحد شوارع "ليون" في تروٍ، بينما حاول السائق جاهدًا رؤية الطريق من أمامه، وبداخل المركبة كان ديفيد يدقق النظر من نافذه المركبة على المنازل الملتصقة ببعضها البعض يبحث بعينيه عن رقم المنزل الذي أعطته له سيلفيا في لقائهما السابق، ظل يتابع المنازل التي تمر وراء بعضها البعض كشريط تسجيل قديم، حتى صاح فجأة:

- توقف هنا.

قالها ديفيد لسائق المركبة بعد أن وقع نظره على منزل يحمل رقم "١٤"، أجل إنه هو المنزل المنشود.

ترجل ديفيد من المركبة وتحرك وهو يحاول أن يحمي رأسه من المطر المنهمر عليه، حتى وصل إلى عتبة المنزل، تمهل لثانية ليأخذ نفسًا عميقًا، ثم أطبق بيده على جيب سرواله ليتحسس موضع القِنّينَة بداخله، ثم طرق الباب مرةً واحدة وانتظر، مرت دقائق على وقوفه في الخارج، ليجد الباب يُفتح على

غرةٍ، وإذ بيد تجذبه إلى الداخل وتغلق الباب مجددًا من وراءه في عجالة، خطا ديفيد للداخل بضع خطواتٍ ثم التفت لينظر إلى سيلفيا بتعجب مما فعلته، ولكنه تسمر حينها في مكانه بعد أن التفتت هي إليه، كانت ترتدي ملابس بالكاد تستر جسدها، وكأنها تحتاج لوضع المزيد من الحطب داخل النيران الموقدة بالفعل، فقد كان لديها من الجمال ما يكفي لإغواء أوفى الرجال وأخلصهم، ولكن كل هذا لم يؤثر في ديفيد إلا لثانيةٍ أو أقل، فهو يعلم حقيقة هذا الكائن المخادع، الذي سوف ينتظر أن تسنح له الفرصة ليضع صغاره داخل أحشاء الرجال، ولكنه سيتحلى بالصبر، فبعد قليل سوف تنكشف حقيقة كل منهما للآخر، مخلوقان من الجحيم لا ينتميان إلى هذا المكان.

تأمل ديفيد سيلفيا في سكون وهي تتحرك نحوه بخطواتٍ أنثوية رقيقة حتى جاورته، ثم وضعت يديها على صدره ودنت برأسها من وجهه، لتهمس في أذنه:

- هل أنت مستعد لليلة لن تنساها؟

فأجابها ديفيد وهو يبتسم:

- بل هل مستعدةٌ أنتِ؟

أتت إجابة سيلفيا له حينها فعلًا وليس قولًا، فقد أمسكت بيده وهي تتقدمه لتقوده إلى غرفتها وما أن وصلا إليها حتى تركت يده وتحركت في هدوءٍ نحو فراشها لترتمي عليه، ناظرةً نحو ديفيد بوجهٍ مبتسم ونظراتٍ شبقة تدعوه للانضمام لها وقتما يحب.

- هل تعلمين لماذا أشعر بالسعادة الآن؟

قالها ديفيد لسيلفيا والتي ما زالت تنظر له بابتسامة معسولة منتظرة سماع بقية حديثه، فاستطرد قائلًا:

- إني على وشك بضع لحظاتٍ من رؤية حقيقتك البشعة.

- تبددت الابتسامة من على وجه سيلفيا لتنظر له وهي لا تعي ما يقول.

فاستطرد حديثه مجددًا وهو يتقدم نحوها ببطءٍ:

- لا تقلقي، فكلانا سوف يبصر بشاعة الآخر بعد لحظاتٍ من الآن.

أخرج ديفيد القِنّينة من جيب سرواله، ثم فتحها ليتجرع الترياق من داخلها، وما أن رأت سيلفيا القِنّينة والطلسم المنقوش حتى بدأت تتحفز في جلستها وهي تحدثه بنبرةٍ متوترة:

- ما هذا الشيء؟ ما الذي تنوي فعله؟

أنزل ديفيد القِنّينة من فمه، ونظر إليها ضاحكًا وهو يمسح بقايا الترياق من على شفتيه بيده، ليجيبها قائلًا:

- لا تقلقي، فسوف ينتهي الأمر سريعًا، فقريبًا سوف تعودين أنتِ وصغارك إلى الجحيم.

كان ديفيد وسيلفيا يتبادلان النظرات الصامتة للحظاتٍ قليلة، وبالرغم من صمتها إلا أنها كانت كافية للتعبير عما في داخل كلٍ منهما، فسيلفيا كانت نظراتها يملأها الخوف والترقب مما هو آتٍ ولا تدري به علمًا، بينما كانت نظرات ديفيد يملأها الغضب والبغض نحو هذه المخلوقة الشيطانية، منتظرٌ أن يثمر الترياق مفعوله ليبدأ مهمته الأخيرة.

بدأت ملامح ديفيد في التغير بينما كانت الابتسامة الممزوجة بالألم مرسومة على وجهه، ولكن سرعان ما تبددت ليبدأ في التأوه جراء ما يحدث له وعدم قدرته على تحمل آلام التحول أكثر من ذلك، ها هي ملابسه يمزقها ظهره الضخم، ها هي براثنه تنبثق من أصابعه، ها هو شعر رأسه يتساقط مجددًا، وها هو ينحني بالرغم منه ليجثو على قوائمه الأربعة، ثم حنى رأسه للأسفل

من الألم الذي يحيط برأسه، ويضرب فكه بقوةٍ لتصطك أنيابه خارجه، حلّت بعد ذلك السكينة لوهلة على الجسد المفعم بالألم، لتظهر هيئة صاحبه الحقيقية للعلن أمام المخلوقة تعسة الحظ.

رفع الجرول رأسه للأعلى نحو المخلوقة كاشفًا للمرة الأولى هيئتها الحقيقية، كانت البلفاك مخلوقة ملساء الرأس والجسد، ممتلئة ذو جلد مشوه للغاية، يميل للحمرة الشديدة كجلدٍ مُلتهب تعرض للفحات النيران آلاف المرات، تجلس على فراشها بجسدٍ مترهل كعجوزٍ تجاوزت المائة، تنظر نحوه بعينين أحدهما شبه مغلقة تسيل إفرازات منها والأخرى بيضاء اللون، بينما فتحت فاها الأجوف ليخرج منه خوار غريب وكأنه صوت تَوَعُّد تدافع به عن نفسها.

جحظت عينا الجرول الممتلئة بالغضب نحوها بينما سال اللعاب من بين أسنانه الحادة ليتساقط على الأرض، وقد بدأ يتقدم وهو يحني ظهره للأسفل قليلًا استعدادًا للانقضاض عليها، وبالفعل وثب الجرول من مكانه عاليًا نحوها لتستقر براثنه في موضع جسد البلفاك التي استطاعت الافلات متجنبة وصول براثن الجرول لرقبتها في اللحظة الأخيرة.

تعثر الجرول بداخل حطام الفراش الذي تهشم إثر وثبته القوية عليه وارتطام جسده الضخم به، بينما جرت البلفاك خارج الغرفة وهى تخور بصوتٍ عالٍ، فخرج الجرول سريعًا من الفراش المحطم لكي يلمح المخلوقة وهي تدلف إلى غرفةٍ أخرى من أمامه تقع في آخر طرقة المنزل، وتوصد الباب لتحتمي خلفه، حينها ضحك الجرول في قرارة نفسه وقد تيقن من محاصرتها في مخبئها ولا مفر لها الآن من براثنه الغاشمة، فبدأ بالتحرك ببطءٍ كمن يتلذذ باللعب بفريسته قبل قتلها، وحينها رفع من قامته قليلًا ليتكئ على قائمتيه الخلفيتين، بينما أسند قوائمه الأمامية على الجدارين من كلا جانبيه وهو يغرز براثنه فيهما تاركًا خلفه أثرًا عرضيًا ممتدًا في الجدار، وحين وصل للباب المغلق وجد الباب قد بدأ يتغير لونه من اللون الأبيض إلى الأحمر وقد بدأ يتنقح بآثار حروقٍ تشبه جلد تلك المخلوقة.

وقف الجرول أمام الباب لا يدري ما يحدث، هل تلك خدعة من خدع هذه المخلوقة له؟ هل هذا هو أحد أبواب الجحيم وقد انجلى لتحتمي المخلوقة به؟ كل تلك الأمور لم تكن تعنيه في شيءٍ فهو عازم على الوصول إليها مهما طال الأمر.

أخذ الجرول ينبش الباب ببراثنه الحادة تارةً، بينما يطرق بيده الباب بقوةٍ تارةً أخرى، ثم قرر محاولة الاصطدام بجسده بالباب عدة مرات ليأتي مسعاه دون جدوى، ولكن ما كان يحفزه على الاستمرار في المحاولة هو صوت الخوار المليء بالخوف الذي تصدره المخلوقة الشيطانية بالداخل، فعاد من جديد للمحاولة مرارًا وتكرارًا حتى شعر بأن الباب من أمامه قد بدأ يَئِنُّ معلنًا قُرب استسلامه له، وحينها قرر الجرول أن يصدم الباب بجسده الضخم صدمةً قوية تُنهى معاناة هذا الباب للأبد.

وبالفعل تراجع للخلف بأمتارٍ ليصل إلى داخل الغرفة الأخرى مجددًا، وقد أحنى ظهره ورأسه قليلًا وهو يصب بصره نحو الباب المغلق، ثم ركض الجرول سريعًا كالثور الهائج ليصل إلى الباب ويلقي بقوته الغاشمة وبجسده الضخم نحو جوف الباب، ليتهشم الباب أخيرًا ويستطيع المرور من فوق حطامه.

وجد نفسه في مواجهة البلفاك التي كانت تقف خائفةً بجوار أحد الجدران، وحينها تحركت قوائم الجرول على الأرضِ ببطءٍ وهو يجز على أسنانه بينما زاد تساقط اللعاب من فمه كحيوانٍ مسعور، وهنا باغتته بهجومٍ دفاعي مفاجئ حيث انبثق من فيها المفتوح مادة سائلة قذفتها في وجهه لتصيب عينيه

بالاحتراق الشديد، فأخذ يعوي في ألمٍ بينما تصاعدت أدخنة المادة الحارقة من وجهه وهو مغلق العينين لا يستطيع رؤية أو تبين أي شيءٍ من أمامه، فأخذ يطيح بيديه بقوةٍ في المكان من حوله، وحينها حاولت البلفاك المرور من جانبه والفرار منه، ولكن ولحظها العَسِر تلامس جسدها بإحدى يدي الجرول الذي شعر بها سريعًا لكي يعيقها من قدمها وتتعثر على الأرض بقوةٍ، ثم أخذ الجرول يتحسس مكان سقوطها وهو ما زال لا يبصر شيئًا من أمامه، حتى تمكن منها ليجثو فوقها وهو يشعر بها تحاول الإفلات والتملص منه، وهنا رفع الجرول يديه للأعلى ليهوي بقبضتيه بكل ما أوتي من قوةٍ فوق رأس البلفاك، ثم عاد يرفعهما مجددًا ليعيد الكَرّة تلو الأخرى.

كانت قوة كل ضربةٍ له موازيةً للألم الذي يشعر به، إن لم تكن تفوقه في القوة، فما كان منه أن شعر بها في البداية وهي تحاول التملص وهي تخور عاليًا، ثم شعر بها وقد كفت عن الخوار ثم تلاه أن هدأت عن الحركة كليًا.

شعر الجرول برأس المخلوقة تتهشم من تحت قبضتيه، ليتحسس لزوجة سائل ما يزداد التصاقًا بقبضتيه أكثر في كل فعلةٍ، كل هذا لم يوقفه فأخذ يعيد فعلته مرة تلو الأخرى في حركةٍ تلقائية، وكأنه يُنفس عن الألم الذي يشعر به مع كل ضربةٍ يهوي بها على رأسها المهشمة، حتى أخذت تتباطأ حركة يده

مرة عن الأخرى، حتى أحجم عن فعلته بعد أن تيقن من موت هذا المخلوق الدنس، ليهدأ غضبه في النهاية مع هدوء ألم وجهه، ثم رفع هامته عاليًا وهو يعتلي جثة فريسته معلنًا انتصاره الحتمي عليها.

الفصل الرابع

"منزل آل جرين"

هبط الزوج على درجات سلم الطابق الثاني متجهًا نحو الصالة يتثاءب في تكاسل، ليرمي ظهره على الأريكة وهو يطيل النظر أمامه في هدوءٍ لثوانٍ كمن يحاول الاستفاقة من تكاسل نومٍ عميق، فخرجت زوجته من المطبخ وهي تحدثه قائلة:

- صباح الخير، هل نمت جيدًا؟

فالتفت إليها متعجبًا ليجيبها:

- صباح الخير، لماذا لستِ في عملكِ اليوم؟

فأجابته وهي تهز كتفيها بامتعاضٍ:

- لا شيء، لقد شعرت بأني لست على ما يرام قليلًا، فقررت أن آخذ اليوم عطلة وأجلس بالمنزل معك لتأنس بي.

نظر الزوج لها بابتسامة خافتة ثم فرك وجهه بكلتي يديه بقوةٍ كمن لا يريد أن يغلبه النعاس مجددًا، فقررت زوجته حينها أن تتجاذب أطراف الحديث معه مرةً أخرى لتسأله.

- ألم تنعم بنوم جيد البارحة؟

فحدثها زوجها بصوتٍ يعلوه المزاج العكر مجيبًا:

- أنا لم أنم جيدًا بالمرة، ثم استطرد حديثه وهو ينحني للأمام ليلتقط الصحيفة الموضوعة على المنضدة من أمامه قائلًا: أحد هؤلاء المخلوقات كان يحوم في الهواء حول المنزل، مُصدرًا صوت صاخب لرفرفة أجنحة ضخمة جعلتني أظل منتبهًا لوقتٍ متأخر حتى سَقْطت سهوًا في النهاية.

فأجابته بنبرةٍ ساخرة:

- أمرٌ غريبٌ، فأنا لم أسمع شيئًا بالرغم من كوني نائمة بجوارك طوال الليل.

رفع الرجل جبينه المنحني صوب الصحيفة لينظر أمامه في حنقٍ ثم التفت إليها قائلًا:

- يبدو أن كل ما أتحدث به سوف يصبح من شأنه جعلي مجنونًا في نظرك، أعدك ألا أبوح لكِ بالمزيد منذ الآن.

لم تُجب عليه زوجته بل اكتفت بأن التفتت عائدة إلى المطبخ لتكمل ما كانت تفعله، وعاد الزوج لمطالعة الصحيفة التي في يده، ولكن حينما وصل للصفحة الثانية من الجريدة تهيأ له صوت ما، لقد تهيأ له صوت جرس الهاتف فحاول أن يسترق السمع جيدًا، ولكن تأكدت شكوكه حينما وجد زوجته تخرج من المطبخ مسرعة الخطى تتجه نحو الغرفة الأخرى وهي تحدثه أثناء مرورها بجواره في تأففٍ:

- هل علي أن أفعل كل شيء بنفسي؟

ثم توجهت نحو الهاتف لترفع السماعة، لتجيب على المتصل:

- ألو، مرحبًا روبرت، أنا بخير، أجل لحظة واحدة.

عادت الزوجة سريعًا لزوجها لتحدثه بحماسٍ يغلبه التوتر وهي تقول:

- عزيزي، إنه روبرت من العمل.

ارتسمت ابتسامه ثقة على شفتي زوجها وهو ينهض من جلسته في هدوءٍ قائلًا:

- ألم أقل لكِ أنهم سوف يعاودون الاتصال بي!

تحرك الرجل إلى الهاتف ثم رفع السماعة الموضوعة جانبًا ليجيب قائلًا:

- مرحبًا روبرت.

ظل الرجل يستمع لحديث روبرت لدقائق قليلة دون أن ينبس بكلمةٍ، بينما كانت زوجته تنظر إليه محاولة تبين كنية الحديث من ملامح وجهه، ولكن كان زوجها يستمع إلى الحديث بملامح يملأها الجمود مما زادها توترًا فظلت واقفة بجانبه والترقب يكاد يقتلها منتظرة نهاية الحديث، حينها وجدت زوجها يتفوه قائلًا:

- حسنًا، مع السلامة.

وضع الزوج السماعة من على أُذنه ليقفل الخط، فسألته زوجته سريعًا بوجهٍ يملأه اللهفة:

- حسنًا؟ ماذا قال روبرت؟

فأجابها زوجها:

- لقد أصدرت اللجنة نتيجة التحقيق، لقد تم فصلي عن العمل.

تسمرت الزوجة في مكانها ولسانها عاجز عن النطق لا تدري ما تقول من هول الصدمة، فما كان بيدها إلا أن اغرورقت عينيها بالدموع وانسابت على وجنتيها وهي تنظر إليه في حزنٍ، فما كان من زوجها إلا أن دَنا نحوها ليُهدئ من روعها قائلًا:

- لماذا تبكين؟ أنا لم أكن احتاج لهم من الأصل، لا تقلقي سوف أتدبر أمرنا جيدًا.

كفّت الزوجة عن ذرف الدموع، وارتشفت منخارها لتستجمع شتات نفسها لتوجه حديثها إليه قائلة:

- هكذا لم يعد لدينا خيارًا سوى أن تعمل مع والدي في مصنع الزجاج خاصته، كما طلبت منك من قبل.

فأجابها زوجها بوجهٍ متجهم:

- وكما قلت لكِ من قبل، أنا لن أعمل في وظيفة أقل مني شأنًا مهما حدث.

فعادت لتجيبه:

- لقد تعذرت حينها بأنك تنتظر نتيجة التحقيق، وها قد سمعناها للتو، ثم اقتربت منه مستأنفة: لقد سمح لنا والدي بالمكوث في منزله مؤقتًا حتى انتهائه من رحلة عمله، ونحن هنا منذ أكثر من شهر ولن يطول الأمر حتى يعود، حينها سوف يتوجب علينا البحث عن مكان لنقيم فيه، كيف سوف نتدبر أمورنا وأنت عاطل عن العمل، أخبرني؟

ظل الاثنان ينظران إلى بعضهما لثوانٍ دون أن ينبس أحدهما بشيءٍ، حتى تحدث الزوج مجددًا ليقول:

- لا تقلقي، سوف أشرع قريبًا في عمل جديد يليق بي، ثم التفت عائدًا لسلم الطابق الثاني وهو يهمهم قائلًا: سوف أحاول أن أنال قسطًا من النوم، فلربما سوف يعود هذا الوغد لمراقبتي مجددًا في المساء وسوف يؤرق صوت رفرفة أجنحته نومي مجددًا.

ظلت زوجته تتبعه بعينيها حتى ابتعد عن انظارها، حينها عَقَدت العزم في قرارة نفسها على القيام بأمرٍ أخير قد ينقذ زوجها من تدميره الذاتي لنفسه

ولمن يحيطونه، فيبدو أن هذا التدمير سوف يطول زواجهما أيضًا عاجلًا أم آجلًا إن لم تتدارك هي الأمر في القريب.

****

"الطبيب بريمان، للأمراض النفسية والذُهانية"

جلس الطبيب بريمان في ساعةٍ متأخرة من اليوم في ردهة منزله يطالع عدة ملفات متكدسة فوق المنضدة، فاليوم هو يوم عطلته الوحيد ولكنه قرر قضاءه في دراسة وتحليل حالات المرضى الحاليين لديه، وكعادة منزله الذي أصبح لا يخلو من الزائرين، فقد وجد أحدًا ما يطرق الباب طلبًا لرؤيته، لا ينكر أن صوت الطرق قد قطع تركيزه ولكنه كان قد شارف على الانتهاء على أي حال، حينها وضع الملف الذي يحمله جانبًا وهم بالقيام نحو باب المنزل.

فتح الطبيب بريمان الباب فتهللت أساريره حين رأى القس جوناس يقف أمام عتبة منزله، فقال له في ترحابٍ:

- الأب جوناس، مرحبًا، تفضل إلى الداخل.

دلف القس جوناس للداخل لبضع خطواتٍ ثم تمهل قائلًا:

- لقد جئت لكي أطمئن عليك، فأنا لم أرك منذ فترةٍ ليست بالقليلة.

أشار الطبيب بريمان بطريقةٍ ودية نحو الردهة ليتحركان هو والقس جوناس تجاهها، وبمجرد وصولهما هناك لفت انتباه القس جوناس كم الملفات المتكدسة فوق المنضدة من أمامه، فنظر إلى الطبيب بريمان وهو يخلع معطفه وقبعته ويضعهما على الأريكة من جانبه ليجلس وهو يحدثه قائلًا:

- يبدو أن جدول عملك مزدحم للغاية في الفترة الحالية.

انحنى الطبيب بريمان نحو المنضدة وأخذ يُرتب الملفات فوق بعضها وأمسكها بكلتا يديه ليتحرك نحو غرفة عمله ليضعها في عجالة هناك، ثم عاد إلى القس جوناس ليجيبه وهو يبتسم:

- أنا بالفعل مشغول للغاية في الآونةِ الأخيرة، والفضل في هذا يرجع لك.

فسأله القس جوناس بفضول:

- حقًا؟ وكيف هذا؟

جلس الطبيب بريمان هو الآخر على الأريكة ثم أجابه:

- أتتذكر ما حدثتني به حين تقابلنا في المرة الأخيرة؟ حينما قلت لي أن السبب الوحيد لإقدامك على القيام بالعلاج النفسي هو أنه كان مجاني.

أومأ القس جوناس موافقًا على ما يقوله، فعاد ليكمل الحديث قائلًا:

- حينها واتتنى فكرة، ماذا إن عرضت خدماتي للمرضى على أن تكون أول جلسة بدون مقابل، وأشعت الخبر في الجوار بين العامة.

اتكأ القس جوناس للأمام والفضول على وجهه ليسأله:

- وماذا حدث حينها؟

فأجابه الطبيب بريمان بسخرية:

- صدقني، لو كنت أعلم كم النجاح الذي سوف ألاقيه لكنت قمت بتنفيذ تلك الفكرة منذ أول يوم أتيت به إلى هنا بدلًا من فكرة توزيع الإعلانات الورقية على المارة، وكأنني أحد المنتجات السخيفة، ثم عاد ليكمل والفخر يعلو وجهه: لقد جاءني الناس من كل حدبٍ وصوب، إني بالكاد أستطيع أن أجد الوقت للنوم.

فسأله القس جوناس مستفسرًا:

- وكيف ظهر الكثير من المرضى الآن لمجرد أن الجلسة دون مقابل؟ ألا يخشون على سمعتهم وسط ذويهم؟ وما الذي يفيدك بفعلتك هذه؟ فمعظم من سوف يأتي في المرة الأولى لن يعاود القدوم مجددًا طالما أنه سوف يدفع المال في المقابل تلك المرة؟

فأجابه بريمان قائلًا:

- بالنسبة للجزء الأول من سؤالك فسوف أجيبك بأن كلمة "دون مقابل" قد جذبت الناس مثلما يجذب الطعام المكشوف الذباب فلقد أظهرت الكثير من الناس بشَتَّى الأنواع والطبقات، منهم من لا يهتم بالموضوع من الأصل ولكنه جاء حبًا في التجربة طالما أنه لن يدفع مقابلها شيئًا، والبعض من كان يريد أن يأتي ولم يكن يملك المال الكافي، ولذا حينما سمع بهذا العرض السخي حرص على ألا تفوته الفرصة مهما كانت الأسباب، والبعض الآخر أتى من أماكن متدنية يشعر برغبة تجربة شيئًا في نظره لا يقوم به سوى الأثرياء والمرفهين وقد سنحت له الفرصة لتجربته، وصدقني إن رأي الناس فيه هو أقل من أن يشغل رأسه به، ثم تمهل ليأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يردف: أما عن الجزء الأخير من سؤالك حول ما سوف يفيدني في ذلك، فسوف أجيبك بأن الإفادة التي أتتني حتى الآن أغلبها مكاسب أدبية، فقد

ساعدت الكثير على التعافي من أضرارٍ نفسية شَتَّى لديهم، أو على الأقل قد وضعتهم على الدرب الصحيح لحياة نفسية سليمة وصحية، أما عن المكاسب المالية، فحتى الآن ثلاثة من المرضى قد استمروا في استئناف الجلسات كلها حتى تعافوا كليًا.

فعاود القس جوناس السؤال:

- وما العدد الكلي لمن أتوا لزيارتك منذ حين؟

فأجابه بريمان مُسْتَحِيًا:

- واحد وثلاثون مريضًا!

نظر القس له وهو يحاول جاهدًا اخفاء الضحك من على وجهه ولكن سرعان ما انفجر من الضحك مما سمعه، بينما ضحك الطبيب بريمان هو الآخر من سخرية القس جوناس من الأمر، فحدثه القس جوناس وهو ما يزال يضحك:

- ثلاثة مرضى قد استأنفوا الجلسات من أصل واحد وثلاثين، يا له من نجاحٍ مُبهر.

- لقد قلت لك أنه لا يهمني الربح المالي قدر ما يهمني مساعدة البشرية.

هدأت ضحكات القس تدريجيًا ليحل محلها بعد ذلك صمتًا ذو مغزى خفي، فأطال التأمل في وجه الطبيب بريمان، وكأنه يجول تساؤلًا ما في خاطره:

- ما الذي تريد أن تسألني عنه يا أبتاه؟

أفاق القس جوناس مما كان يشغل خاطره على الجملة التي قالها له الطبيب بريمان، فنظر إليه بتعجب قائلًا:

- وكيف عرفت ما أريده وأنا لم أتحدث به؟

فأجابه بريمان بابتسامة هادئة:

- الأمر واضح في عينيك وضوح الشمس، تفضل فلتسألني.

لم يعرف القس جوناس من أين يبدأ ما يريد اخباره به، فقرر أن يُعرب عما يجول في خاطره دون ترتيبه، فبدأ بالحديث له قائلًا:

- لقد أتيت إلى هنا منذ ما يقارب من السنتين تاركًا ورائك حياتك الرغدة في لندن وشأنك الهام في مصحة "لوكشنبرج للأمراض النفسية والذُهانية"، لماذا تركت كل هذا وأتيت إلى بلدة بسيطة مثل "إيبينج"؟!

فأجابه بريمان بنبرةٍ متروية:

- هناك سببان لذلك.

- حسنًا، ما هو السبب الأول؟

- السبب الأول أنى تركت منصبي في مصحة لوكشنبرج لأهرب من الفظائع التي كنت أراها هناك، فلقد كانت لوكشنبرج في نظري هي الجحيم ذاته.

تعجب القس جوناس مما سمعه للتو، فاستأنف بريمان حديثه ليسأله:

- هل تتذكر الصورة الفوتوغرافية التي احتفظ بها لعملي القديم في غرفه الكشف خاصتي؟

شرد القس جوناس لوهلة وهو يستعيد في ذاكرته تفاصيل تلك الصورة المعلقة على الحائط، والتي يظهر فيها الطبيب بريمان برفقه زميلٍ له وورائهما مصحة لوكشنبرج، ثم عاد ليومئ برأسه له.

فاستطرد بريمان حديثه:

- خلف هذا المبنى الأنيق والتصميم الراقي الدال على التحضر، ما زال بعض القائمين عليه يستعملون الأساليب العلاجية القديمة التي وُصمت

بالعار لاعتقادهم بكفاءتها مهما اتهمهم الآخرين بالجهل والرجعية، فجدران هذا المكان تشهد على الفظائع والأهوال التي تحدث هناك.

- عن أي أهوالٍ تتحدث؟

- لنقل إن داخل أسوار هذا المكان على الرغم من مظهره الخادع، إلا أن ما زال الطب به لا يرقى لمستوى التعامل الآدمي الذي يليق بالبشر في زمننا هذا.

- ولماذا لم تُوقف الأمر إذن أو تقول شيئًا؟

- صدقني، لا أحد يجرؤ على إفشاء ما يحدث هناك، فالعقاب سيأتي بكلمةٍ واحدة "الجنون"، فالجنون تهمة قد تطول أي إنسان مهما علا شأنه خاصة وإن طال مجاورته له، وحينها سوف يصبح الحكم على سلامة عقلك من تخصص جلادك نفسه.

خيم الصمت بنهاية الحديث على رؤوسهم، فقد كان القس جوناس ينظر في أسى نحو بريمان الذي أحنى رأسه قليلًا وكانت عيناه تفضح شرود ذهنه وكأنه يستعيد ذكريات مواقف أليمة حدثت له ذات حين.

- وما السبب الثاني؟

رفع بريمان هامته ونظر إلى القس جوناس بعد سماع ما سأله له، فقد كان جليًا أنه لم يستطع كبح فضوله أكثر من ذلك ويريد أن يعرف بقية الإجابة، فأجابه الطبيب بريمان قائلًا:

- ليس من السهل أن تُحدث فارقًا في حياة المرضى هناك، فمعظمهم قد وصل إلى مرحلةٍ ميؤوسٍ منها في علاجه، فأنا ما زلت اتذكر الأعين الزائغة فيما حولها والإدراك المتأخر لأبسط الكلمات لمن أمامك، وأعين بعض المرضى التي تُعبر عن نافذةٍ لعالم آخر يعيشه المرء بداخل عقله ويشاهده، إن الأمر يبعث حقًا على الحزن.

ثم ضم راحتي يديه سويًا، وقد قاربهما من وجهه قليلًا وهو يشرح بعزمٍ:

- إن العديد من الأمراض المستعصية هي الثمرة الأخيرة لبذرةٍ لم تُقتلع منذ بداية ظهورها، ولهذا قررت أن أنشئ عملي الخاص، وأن أحاول علاج المرض في بدايته قبل أن يستحوذ على ذهن المريض ونفسيته، وهكذا سوف تزداد نسبة نجاحي في علاج أكبر كم ممن يحتاجون مساعدتي الطبية قبل تدهور حالتهم المرضية لتصبح مجرد حالاتٍ ميؤوس منها تهيم على وجوهها.

- ولماذا وقع اختيارك على بلدتنا؟

- لأصدقك القول فقد كان الأمر عفويًا، فبعد العيش في مدينةٍ صاخبة مثل "لندن" سوف تريد حتمًا بلدةً هادئةً، ولهذا بحثت حتى وجدت منزل من التراث الأثري معروضًا للبيع في بلدتكم فاشتريته، وها أنا ذا.

ابتسم القس جوناس ممتنًا لسماع إجابات بريمان على تساؤلاته، التي طالما شغلت عقله لفترةٍ ليست بالقليلة، ثم التفت جانبًا ليأخذ القبعة والمعطف من جانبه ليبدأ بالنهوض معتزمًا الرحيل....

فاستوقفه الطبيب بريمان مازحًا:

- أنت تريد الذهاب الآن بعد أن انهيت تحقيقك، أليس كذلك؟

فأجابه القس جوناس ضاحكًا:

- لقد أزعجتك بما فيه الكفاية وقد تأخر الوقت، ولكن أعدك بأني سوف آتي لزيارتك قريبًا.

فأجابه بريمان والابتسامة على وجهه:

- وأنا بالتأكيد أتطلع للقائنا القادم.

"أنا أُدعى ديفيد"

عَسْعَسَ الليل على بلدة إيبينج، وفي الأطراف الغربية للبلدة قطعت مركبةُ أجرة طريقًا مُشجرًا أصم، لا يُسمع به للطيور صوتٌ ولا يُرى للحيوانات أثر، يغمره ضبابٌ كثيف لا ينقشع، يُسكن القلق في القلوب.

توقفت المركبة أمام بنايةٍ قديمة تحيط بها أسوار عالية، وما أن ترجل ديفيد منها حتى انطلقت لتبتعد عن المكان في عجالةٍ، التفت ديفيد بحركة تلقائية ناحية المركبة جراء صوت احتكاك عجلاتها المسرعة بالأرض، ثم عاد ليلتفت أمامه مجددًا ويرفع هامته للأعلى لينظر إلى اللافتة الكبيرة ذات الضوء البصيص المثبتة فوق مدخل السور من أمامه، "مصحة انچلهارت لمرضى الجُذام"*.

*مرض الجُذام (Leprosy) : هو عدوى مزمنة تنجم عن بكتيريا تعرف بالمُتَفَطِّرَة الجُذامِيّة، ينجم عنها تأذي الأعصاب المحيطية وهي الأعصاب خارج الدماغ، والنخاع الشوكي، والجلد، والخصيتين، والعينين، والأغشية المخاطية للأنف والحلق. "المرجع منظمه الصحة العالمية"

كانت تلك الكلمات مكتوبة على لافتةٍ مهترئة تئن مع مرور أبسط النسمات بجانبها لتتوعد بالسقوط فوق رأس أي شخص وفي أي وقت، وقبل أن يخطو خطوةً للأمام أمسك بالترياق ليتجرعه وهو يسترجع حديثه السابق مع زاركن في ذهنه، والذي حدث قبل إتيانه إلى هنا منذ قليلٍ.

زاركن:

- تذكر ما سوف أقوله جيدًا، فتلك المهمة أصعب من قبلها.

ديفيد:

- حسنًا.

زاركن:

- أنت على وشك زيارة أحد مخلوقات "الغيجور" التي تختبئ هنا في عالم البشر، إنه يتواجد في هذه البلدة منذ أكثر من أربعين عامًا متخفيًا في هيئة بشرية كواحدٍ منهم، وقد اختار لنفسه اسم "رودجر" ويعمل كمديرٍ لمصحة الجُذام* المتواجدة في هذا الجزء البائس من البلدة، هذا المخلوق ينتمي لأقدم عشائر الجحيم والتي تتغذى على بقايا اللحم الميت للبشر وجيف بقية مخلوقات عالمنا.

ديفيد:

- وما الذي يعود عليه بالتخفي في مثل هذا المكان؟

زاركن:

- هل تمزح؟! إن هذا المكان بالنسبة له بمثابة مصنع للحلوى، يستطيع تناول كل ما يحلو له والإفلات دون وجود رقيب لأفعاله، ثم عاد ليكمل: تعتبر مصحة الجُذام هي المكان الأمثل لمثل هذا المخلوق لكي يبتعد عن أعين البشر الفضوليين، فالجميع يخاف من زيارة هذا المكان أو حتى المرور بجانبه خيفة من سُمعة هذا المرض البشري اللعين.

ديفيد:

- وهل يتواجد هناك بمفرده؟

زاركن:

- أجل، إن مخلوقات الغيجور مخلوقات شرهة لا تشارك طعامها مع أحد بغية امتلاكه وحدها، ولكن تذكر جيدًا، أنك سوف تتواجد هناك تلك المرة للاستطلاع فحسب، لمعرفة الوقت المناسب لتضرب ضربتك القادمة.

انتهى ديفيد من استرجاع حديثه السابق مع زاركن، وبدأ يخطو أولى خطواته نحو مدخل البوابة، كانت البوابة تتلامس أطراف جزئيها ببعضهما فقط دون إحكام غلقها، فدفعها بيده للأمام ليستطيع العبور منها في هدوء، التفت بوجهه لليمين نحو كُشك الحراسة الشاغر وحارسه المفقود، لا يوجد أحد ليستوقف الغرباء أو يردع النزلاء من الخروج، وكأن كلاهما لا يجرؤ على الذهاب إلى موضع الآخر، وجد ديفيد بعد ذلك حديقة شاسعة تمتد لمرمى البصر، يقع خلفها مبنى شامخ ذو تصميم قميء وألوان باهتة يُقبض قلب كل من يراه ليشابه من يقطنونه بالداخل، بدأ ديفيد بالتحرك قاصدًا البناية ليعبر من خلال الحديقة، تكاد تقسم من جمود وصمت المكان أن لا أحد يتواجد فيه على الإطلاق، ولكن أتت بارقة أمل على وجود حياة داخل تلك الأسوار، حينما وجد شخص يناديه من بعيد، فنظر نحو المنادي ليجد رجلًا يرتدي زي التمريض يهرول نحوه فوقف لينتظره، وبقدوم الرجل إليه شرح له سبب مجيئه وطلبه لرؤية مسئول المكان، حينها قاده الممرض إلى داخل المبنى، حتى وصلا إلى الطابق الثالث ليشير له نحو آخر غرفة تتواجد بالطرقة ليذهب ديفيد قاصدًا إياها.

دلف ديفيد إلى مكتب إدارة المصحة مطلٌ بابتسامة على وجهه نحو الرجل الجالس خلف المكتب، ليمد يده ويصافحه قائلًا:

- صباح الخير.

نهض الرجل من مجلسه قليلًا وهو يمد يده مصافحًا ديفيد الذي استأنف حديثه قائلًا:

- أعرفك بنفسي، أنا "هاريس" صحفيٌ لدى جريدة "لندن توداي".

ابتسم الرجل له وهو يشير نحو المقعد المتواجد أمام المكتب قائلًا بترحاب:

- أهلا بك سيد هاريس، تفضل بالجلوس.

وبمجرد أن جلس ديفيد على المقعد حتى جلس الرجل هو الآخر وهو يسأله:

- كيف لي أن أساعدك؟

فأجابه ديفيد:

- لقد جئت لمقابلة الطبيب رودجر مدير المصحة.

فأجابه:

- إن الطبيب رودجر لا يأتي معظم الأيام إلا للضرورة لكبر سنه، ويكتفي بالمجيء في أيام العطلات فقط، ليحل محل الأطباء المقيمين طوال الأسبوع ليذهبوا إلى عائلاتهم، وقد ترك لي مسؤولية إدارة المكان طوال الأسبوع أثناء غيابه، ثم عاد للحديث وهو يبتسم مُعرفًا عن نفسه: معك "الطبيب برنارد" نائب مدير المصحة في خدمتك، ويسعدني مساعدتك والإجابة على كل ما تريد معرفته.

بدأ ديفيد بإخراج قلم ومدونة ورقية صغيرة من معطفه، ليمسكهما ويهم بشرح سبب مجيئه قائلًا:

- حسنًا إذن، لقد أوكل لي رئيس تحرير الجريدة مهمة عمل تحقيق يخص مصحات الجُذام الموجودة بمقاطعات إنجلترا، والتي تعاني من إهمال الدولة الشديد لها، فلذلك كنت أريد أخذ بعض المعلومات منك إن سمحت لي.

تقدم الرجل بجسده للأمام نحو ديفيد، وقد تجلت علامات الاهتمام على وجهه قائلًا:

- بالتأكيد، ماذا تريد أن تعرف؟

فأجابه ديفيد:

- أريد أن أعرف كيف تجري الأمور هنا؟ أو بمعنى آخر ما هو وقع الحياة داخل مصحات الجُذام؟

فأجابه الطبيب برنارد:

- إن مرضى الجُذام يعيشون حياةً لا يُحسدون عليها فهم يعانون من نبذ المجتمع لهم، ينتظر معظمهم مصيرًا مُعتمًا لا إشراق فيه، فالمرضى هنا لا يزورهم أو يتردد عليهم ذويهم لأشهر إن لم يكن لسنوات، بل هناك من المرضى من يموتون ولا نجد من نتواصل معهم ليأتوا ويستلموا الجثمان، ولذلك تُعد مصحة الجُذام بمثابه دار رعاية وملجأ للمنبوذين، حتى الدولة لا تؤدي دورها كما ينبغي في تقديم الإمدادات الطبية اللازمة التي نحتاجها في المصحة، ولا الأجر المناسب للعاملين هنا بالرغم من مخاطراتهم اليومية في التعرض للمرض نتيجة احتكاكهم المستمر بالمرضى، حتى زميلي "الطبيب بيتر" يهدد كل يوم بالاستقالة إن لم يجد الطبيب رودجر له حلًا لزيادة الأجر المالي الخاص به، ثم استطرد قائلًا: وحتى أنا لا أجد المقابل المالي المناسب للأعباء التي اتحملها لهذا المكان وأرواح المرضى المعلقة في رقبتي.

حاول ديفيد أن يبدو على وجهه ملامح التفهم لمعاناة الطبيب برنارد ليبدأ بالتحدث إليه قائلًا:

- بالفعل يجب على الدولة أن تنتبه إلى... ثم توقف ديفيد عن الحديث بغتةً حين وجد الباب يُطرق لتدلف إحدى الممرضات إلى الغرفة وفي يدها صحيفة وتتحرك نحو المكتب وتضعها عليه، محدثة الطبيب برنارد:

- لقد قرأ الطبيب "بيتر" الجريدة وأرادني أن أردها إليك.

- شكرًا لكِ، ولكنني بالفعل قد انتهيت من قرائتها قبل أن يأخذها هو، ثم عاد ليحدثها مازحًا: وأخبري الطبيب بيتر أن يشتري صحيفةً لنفسه بدلًا من الاستعارة اليومية لصحيفتي.

- حسنًا سوف أخبره.

قالتها الممرضة وهي تضحك على ما قال ثم تحركت نحو باب الغرفة للمغادرة، فعاد ديفيد ليكمل حديثه للطبيب برنارد وقد حانت منه نظرة خاطفة نحو الجريدة الموضوعة على المكتب أمامه والعناوين الموجودة في أول صفحة بها، وحينها التصقت الكلمات التي كان يريد قولها في حلقه وقد استقرت عيناه على عنوان ما أثار بنفسه الفزع، فقد وجد العنوان الرئيسي في

الصفحة الأولى مكتوب به " شاهدةٌ تكشف غموض جريمة القتل في منزل ١٤ بحي ليون".

عجزت عينا ديفيد عن الابتعاد وترك العنوان المكتوب بالصحيفة، فاقترب تلقائيًا نحو العنوان وهو يميل بوجهه جانبًا ليستطيع قراءة الخبر، فاستشعر الطبيب برنارد القلق على وجه ديفيد ليسأله والفضول يعتريه:

- سيد هاريس، هل أنت بخير؟

فنظر إليه بتوترٍ وهو يجيبه:

- أجل، أنا بخير.

ثم عادت عينا ديفيد تنجذب نحو العنوان مجددًا رغمًا عنه، فبدأ الطبيب برنارد بتوجيه حديثه إليه ليشرح ما يحتويه الخبر أملًا في إطفاء نار فضوله المتقدة:

- لقد تمكنت الشرطة من إيجاد شاهدة عيان على واقعة القتل، إنها طفلة تُدعى "ساندي" تقيم في البناية المقابلة للمنزل الذي وقع به الحادث، كانت الطفلة التي لم تتعد التسع سنوات لا تستطيع النوم بسبب صوت هطول الأمطار الكثيف يومها، فنهضت من فراشها لتقف عند النافذة لتشاهد

الأمطار، وحينها رأت زجاج أحد شبابيك المنزل يتهشم من الداخل ليقفز منه شيئًا ما ويركض بعيدًا، شيء لم تستطع تبينه جيدًا بسبب حلكة الليل وغزارة الأمطار.

فسأله ديفيد بوجهٍ قلق وجبين يتصبب عرقًا:

- وما كان هذا الشيء الذي رأته؟

فأجابه الطبيب برنارد:

- إن أقوالها كانت متضاربة إلى حدٍ كبير، فوفقًا للصحافة أنها قد أخبرتهم بأنه شيئًا يشبه الإنسان ولكنه يمشي على قوائمه الأربعة، وحينًا تخبرهم بأنه يشبه أحد الحيوانات البرية، وحينًا آخر تخبرهم بأنه حيوان ذو ملامح بشرية، ثم استطرد قائلًا: فكما تعرف لا يمكن الاعتماد على رواية طفلة صغيرة ذات خيالٍ غير محدود، ثم نظر نحو ديفيد وقد رفع يده وأشار بسبابته للأعلى كأنه سوف يقول شيئًا هامًا: ولكني لدي تحليلي الشخصي لتلك الحادثة، إن "غابة إيبينج"* اللعينة تحيط بجزءٍ كبير من البلدة، وبداخلها الكثير من

*غابه إيبينج Epping forest/: تعد من أكبر الغابات المتواجدة في إنجلترا حيث تقع على مسافة شاسعة تقدر ب ٢,٤٠٠ هكتار تقع بين بلده إيبينج في الشمال وحتى بلده جريت لندن greater London في الجنوب، المرجع:
"Forest Natural England. Archived from the original"

الحيوانات الضارية التي قد سبق على مدار الأعوام الماضية أن هاجمت بعض المارة، ولذلك أنا أظن أن أحد تلك الحيوانات قد قاده فضوله للتجول في تلك الضاحية ليلًا وضل طريق العودة، وربما تركت الضحية أحد شبابيك المنزل مفتوحًا فاستطاع التسلل منه للداخل، أو شيءٍ من هذا القبيل.

- لديك وجهه نظر سديدة بالفعل.

قالها ديفيد وهو يبتسم على مضضٍ محاولًا مجاراة الرجل في نظريته، ثم أخذ يُدَّون جمل عبثية داخل المدونة الصغيرة بيده ليغلقها في عجالة:

- أظن أنني سوف أحتاج لمقابلة الطبيب رودجر بشكلٍ شخصي بصفته القائم الرئيسي لهذا المكان، لعلّي أستطيع التحصل منه على معلوماتٍ أكثر بحكم خبرته العمرية في العمل بهذا المكان.

فأجابه الطبيب برنارد بامتعاض:

- كما تشاء، سوف أخبره بقدومك في العطلة القادمة وسوف يكون بانتظارك حينها.

- وأرجو منك أيضًا أن تحدد لي وقت أستطيع به الانفراد في الحديث معه والاستفاضة فيه دون أن نتعرض للإزعاج.

نظر الطبيب برنارد نحوه ليجيبه قائلًا:

- لا مشكلة، لنقل في العاشرة مساءً، فسوف يكون المرضى في غرفهم استعدادًا للنوم وسوف تقل أعباء وظيفته حينها، ثم تمهل عن الحديث لثوانٍ وكأنه يفكر في شيءٍ ويريد البوح به ليعود قائلًا: ولكن لأصدقك القول لن تكون موضع ترحاب لدى الطبيب رودجر، فلا تضع آمال مقالتك على حديثه.

فسأله ديفيد بتعجبٍ:

- ولماذا هذا؟

- إن الطبيب رودجر ليس معتادًا على زيارة الغرباء للمكان ولذلك فهو يبدو لهم دائمًا غليظ اللسان ووقح الأفعال.

- ليس معتادًا على الغرباء؟ ألا يأتي أقارب المرضى إلى هنا حتى ولو كل حين؟

فأجابه:

- إن "مصحة انچلهارت" تستضيف الحالات الميؤوس منها والتي تكون في المراحل الأخيرة، وفي الغالب يكون المريض قد تخلى عنه ذويه منذ فترة طويلة، ثم عرض عن الحديث لوهلةٍ قبل أن يردف قائلًا: صدقني، لا أحد يأتي إلى هنا.

الفصل الخامس

"منزل آل جرين"

ساد السكون على منزل عائلة جرين لساعاتٍ طويلة ولكن كان ذلك على وشك التغير، فها هو باب المنزل يُفتح، لقد عادت الزوجة من الخارج، وبمجرد أن دلفت إلى المنزل حتى ارتمت على أحد المقاعد لتلتقط أنفاسها المتقطعة، كان يبدو عليها الوهن الشديد كعادتها في الآونة الأخيرة، أراحت عينيها المرهقتين لدقائق معدودة ثم هَمَّت بالوقوف مجددًا لتنظر في أرجاء المكان بحثًا عن زوجها ولكنها لم تجده في الجوار، ففطنت إلى مكان تواجده، فمن المؤكد أنها سوف تجده واقفًا في شرفة غرفتهما كعادته دائمًا، بدأت بالتحرك والصعود على السلالم المؤدية للطابق الثاني من المنزل،

كانت في كل درجة من السلم تقبض بيدها على مسند السلم لتسحب جسدها الواهن للأمام داعية ألا تخذلها قدماها في أي لحظة، وصلت إلى غرفتها لتجد زوجها يقف في الشرفة في صمت عاقدًا يديه أمام صدره ينظر نحو الشارع في ترقب، فذهبت إليه وهي تبتسم:

- مرحبًا عزيزي، لقد عدت.

لم تتلق حينها أي إجابة من زوجها الذي وجدته يطيل النظر إلى نقطةٍ ما في الطريق الذي تطل عليه الشرفة من بعيد، فنظرت بدورها إلي الطريق بحركة تلقائية فلم تجد شيئًا هناك، فالشارع كان خاويًا من أي مارة أو أحداث تُذكر.

فحدثته مجددًا وهي تسأله بفضول:

- ما الذي تفعله؟

- هل ترين الرجل شاحب الوجه الذي يقف هناك بلا حراك؟

لم تفهم الزوجة ما يقصده زوجها بهذا الحديث، كانت لا تدري عما يتكلم فهي لا ترى أحدًا هناك، ولكن على خلافها كان الزوج يُبصر شخصًا شاحب اللون أقرع الرأس، يقف بلا حراك في مكانه يحدق نحوه بنظراتٍ يملأها التحدي.

نظرت الزوجة مجددًا حول المكان الخالي الذي يقصده زوجها، ثم التفتت إليه قائلة في حنق:

- عزيزي لا يوجد أحد يقف هناك.

فحدثها زوجها وهو ما زال يضع الرجل نصب عينيه دون أن يلتفت إليها قائلًا بنبرة ساخرة:

- بالطبع أنتِ لا تُرينه، إنهم يريدون أن يظن الجميع أني مجنون.

حزنت الزوجة لما تراه بزوجها، فربتت على كتفه بحنان وهي تحدثه:

- هيا بنا لندلف إلى الداخل يا عزيزي، فهناك أمرٌ هام أريد أن أحدثك به.

ثم تحركت للداخل وقد أمسكت يد زوجها لتصحبه معها، فتحرك ليتبعها بعد أن أشاح بصره عن الشخص المتربص به.

عادت الزوجة للغرفة لتجلس على الفراش، فسألها زوجها بعد أن نظر نحو الساعة المعلقة على الجدار من جانبه:

- لقد جئت باكرًا اليوم عن وقت انتهائك من العمل.

فنظرت إليه زوجته لتجيبه:

- أنا لم أذهب إلى العمل يا عزيزي منذ أسبوع تقريبًا.

نظر إليها زوجها بتعجبٍ دون أن يفهم شيئًا، فأمسكت يده لتُجلسه بجوارها وهي تقول:

- سوف أشرح لك كل شيء.

جلس الرجل بجانبها صامتًا وهو ينظر إليها بنظراتٍ متسائلة فاستأنفت قائلة:

- منذ ما يقارب الأسبوعين شعرت بوعكةٍ شديدة وأنا في العمل، وقد أُصبت بالإغماء وحينها أخذت بقية اليوم عطلة، لقد توقعت أن يكون هذا نتيجة الإرهاق الشديد من العمل المتواصل، ولكنه تكرر عدة مرات على مدار الأسبوع، وفي كل مرة يصبح أسوأ ويشتد علي أكثر من ذي قبل مما دفعني للذهاب إلى الطبيب بحثًا عن السبب، وقد قمت بعمل التحاليل اللازمة وحين استلمتها اليوم ذهبت للقاء الطبيب لمعرفه النتيجة وسبب ما يحدث لي، ثم صمتت للحظة لتتمالك نفسها عن البكاء ثم عادت لتقول: إني مصابة بمرض عُضال في المخ، وهو في المرحلة الأخيرة.

نظر الزوج إليها في صدمة من أمره، ثم هب بغتةً من مكانه ليقف وهو يطيل النظر إليها دون أن ينبس بحرفٍ واحد، فعجزت زوجته عن ردع دموعها التي

ملأت جفونها لتبدأ بالانسياب على وجنتيها، وحينها ضحك زوجها ساخرًا مما تقول:

- مهلًا، أنتِ تمزحين بالتأكيد، أليس كذلك؟!

ظلت زوجته ناظرة في عينيه ولم تنبس بكلمةٍ، فوضع الرجل يديه على رأسه وهو مصدوم ليسألها:

- لماذا لم تخبريني حتى الآن؟

فأجابته:

- لم أُرد أن أقلقك حتى أعرف ما بي؟

فحدثها بنبرة عازمة على الأمل:

- حسنًا، لنبدأ بخطوات علاجك إذن.

فأجابته في حزن:

- أنا في مرحلة لا شفاء منها، إنها مسألة وقت لا أكثر.

أتت كلمات زوجته له ليخبو الأمل من على وجهه ليحل محله إدراك الواقع المرير، فسألها مجددًا:

- وكم تبقى من الوقت؟

فأجابته وهي تهز كتفيها لا تدري ما تقول:

- ليس الكثير، ربما بضعة أسابيع أو حتى بضعة أشهر، ولكني لن أصمد لأكثر من ذلك، وحينها حاولت أن تمازحه، ولكنها انهارت في البكاء وهي تحدثه: ربما علينا الاحتفال بعيد زواجنا باكرًا هذا العام، فربما لن أكون حاضرة حينها.

ظل زوجها ينظر لها في صدمة من الواقع الذي صفعه على وجهه غرةً، وجعله عاجزًا عن الحديث أو حتى التفكير، وحينها مسحت زوجته الدموع من على وجنتيها وهي تحاول التماسك قليلًا لتحدثه في أمرٍ آخر يستدعي الحديث، فنهضت من مجلسها لتقف أمامه وهي تقول له:

- هناك أمرٌ آخر أريد أن أحدثك إياه، ثم صمتت لثوانٍ لكي ترتب ما تريد قوله في ذهنها، وعادت لتقول: لقد ذهبت لزيارة الطبيب بريمان ذلك الطبيب النفسي، وسوف نذهب إليه سويًا في القريب.

أثارت كلماتها الحنق في زوجها فكاد أن يفتح فاه لكي يهم بالحديث، ولكنه فوجئ بزوجته تباغته بالحديث مجددًا وقد احتضنت وجهه براحتي يديها لتُقرب وجهها من وجهه قائلة بحزمٍ:

- انصت لي جيدًا، أنا لن أدعك تستمر في تدمير نفسك بعد الآن، وتلألأت عيناها بالدموع مجددًا وهي تستطرد الحديث أنا لا أريد أن أرحل عن الدنيا وأنا قلقة عليك.

لم يفتح الرجل فاه، بل ظل محدقًا في عينيها، فحدثته وهي تتوسل إليه:

- إذا كنت تحبني بالفعل فسوف تفعل ما أريد، فلتعتبر هذا طلبي الأخير لك.

شاهد زوجها الحزن الذي اعتلى وجهها والدموع التي عادت لتنساب من جفونها مجددًا، فما كان منه إلا أن قرر الانصياع لرغبتها خوفًا من أن يثقل كاهلها بالمزيد من الحزن والألم، فأجابها محاولًا طمأنتها:

- لك ما تريدين حبيبتي، سوف نذهب إليه في القريب.

****

" الطبيب بريمان للأمراض النفسية والذُهانية"

- مرحبًا بروفيسور هادسون، تفضل بالدخول.

قالها الطبيب بريمان وهو يفتح باب منزله ليستقبله من أجل الجلسة الأسبوعية الخاصة به، فابتسم له وهَمَّ بالدخول وهو يحدثه مازحًا:

- لقد جئت في الموعد المحدد هذه المرة وليس باكرًا.

فأجابه بريمان بترحاب قائلًا:

- على العكس، فلقد استمتعت في المرة السابقة بالحديث معك كثيرًا.

تحرك الطبيب بريمان نحو غرفه الكشف ليتبعه بروفيسور هادسون، وما أن دلفا إلى هناك حتى حدثه بروفيسور هادسون وهو يرفع يده الممسكة بكتابٍ ما مُبهم المعالم قائلًا:

- تفضل، لقد أحضرت لك كتابًا كما وعدتك.

التفت بريمان نحوه ليمسك الكتاب قائلًا في سعادة:

- لم أتوقع أن تتذكر طلبي هذا، جزيل الشكر لك.

جلس بروفيسور هادسون على المضجع وأراح ظهره للوراء، بينما جلس الطبيب بريمان على المقعد من أمامه وهو ينظر إلى الكتاب بتأنٍ واضح:

- وما هي إجابة هذا السؤال يا تُرى؟

انتبه بروفيسور هادسون لسؤال الطبيب بريمان، فنظر إليه وهو لا يفهم ما يرمي إليه ليسأله:

- استميحك عذرًا؟

نظر الطبيب بريمان إليه هو الآخر ثم أدار الغلاف الأمامي للكتاب في مواجهه بروفيسور هادسون وهو يشير بإصبعه إلى العنوان الخاص بالكتاب، والذي كان بعنوان "الجحيم ومخلوقاته، حقيقة أم خرافة" للكاتب "جاليفر ستروك".

ابتسم بروفيسور هادسون له بعد أن فهم مبتغاه في الإجابة على عنوان الكتاب ليجيبه قائلًا:

- إن إجابة هذا السؤال تختلف من شخصٍ لآخر، فالإجابة تعتمد على قناعاتك الشخصية بحقيقة الموضوع من عدمه.

فسأله الطبيب بريمان بفضولٍ:

- وما هي إجابتك على هذا السؤال، بروفيسور هادسون؟

- حسنًا، إن جميع الديانات التي آمنت بها البشرية على مر العصور كانت تتحدث عن وجود مخلوقات أخرى غير البشر تنتمي لعوالم أخرى خاصة بها، وقد اجتمع غالبيتهم على مسمى لهذا العالم يسمى بالجحيم ووجود مخلوقاته التي تعيش فيه، وهناك الكثير من الحضارات على مر الأزمنة التي وثّقت وجود مخلوقات شيطانية لا تنتمي إلى هنا عاشت وسط البشر، ولذلك يبدو الأمر منطقي للغاية بالنسبة لي.

ثم هدأ عن الحديث، وقد انتهى من إجابة السؤال الذي طرحه عليه الطبيب بريمان ولكنه وجده ينظر إليه دون أي رد فعل بل اكتفى بالصمت المطبق دون أن يؤيد أو يعارض وجهه النظر، فمازحه بروفيسور هادسون قائلًا:

- ما الخطب حضرة الطبيب بريمان، فيما تفكر؟

فابتسم حينها وهو يجيبه:

- لقد تذكرت شيئًا، لا تحمل له بالًا.

حينها قرر بروفيسور هادسون أن يعيد طرح السؤال على سائله، فحدثه قائلًا:

- وما هي إجابتك أنت في هذا الموضوع حضرة الطبيب، هل تحسب أنه علم يناقش حقيقة أم خرافة؟

فأجابه بريمان بعد أن تأنى في الحديث لثوانٍ:

- أعتقد أنه علم يناقش حقيقة، وهذا عن تجربة شخصية.

حينها اعتدل بروفيسور هادسون في جلسته لينظر له بتعجبٍ ويسأله:

- ما الذي تقصده بكلامك هذا؟

أعدل بريمان من موضع النظارة الطبية فوق منخاره وهو يتكلم، وكأنه يحدث نفسه بنبرة ساخرة:

- لقد عاهدت نفسي ألا أفصح عما في داخلي لأحد مهما كان، وها أنا ذا، ثم نظر إلى بروفيسور هادسون الذي كان ما زال ينظر نحوه ليكمل: أريد أن أصارحك بشيءٍ، لقد طلبت استعارة أحد الكتب الخاصة بعلم الشياطين ليس للسبب الذي ذكرته لك سابقًا، ولكن لأني رأيت أحدهم من قبل منذ زمنٍ طويل، ثم استأنف حديثه وهو يحاول تذكر الأحداث: كنت في السنة الأخيرة من الجامعة وبالتحديد في اليوم السابق لامتحان المادة الأخيرة، ظللت ساهرًا في بيت أحد الزملاء حتى وقت متأخر وقد نسيت مهاتفة أسرتي

واخبارهم بتأخري، وبعد أن قرر زميلي النوم ظللت أطالع المراجع والكتب العلمية لساعات دون أن أدري، حتى غلبني النعاس وسقطت سهوًا، واستيقظت في ساعة متأخرة من الليل لأدرك تأخُر الوقت وضرورة العودة للمنزل في أسرع وقت، وأثناء إسراعي لطريق العودة وجدت في أحد الأَزِقَة أثناء مرورى بجانبها رجل يركض فزعًا بلا هوادة، وعيناه مرتكزتان نحو الأعلى تجولان السماء بحثًا عن شيءٍ، ولكن لم يلبث إلا وأن استند جانبًا يلهث أنفاسه المتقطعة، وحينها سمعت صوت رفرفة لأجنحة كبيرة يصدح صوتها عاليًا في السماء، ليسقط من قلبها مخلوق غريب يشبه في بنيته البشر، ولكن يمتلك أجنحة ضخمة تشبه أجنحة الخفاش، بينما يعلو رأسه قرنان، أحدهما مكتمل والآخر مهشمًا حتى قرابة منبته.

تمهل الطبيب بريمان في الحديث ليأخذ نفسًا عميقًا، بينما بدأت علامات الاهتمام تتجلى على وجه بروفيسور هادسون وهو ينصت إلى ما يحدثه به، فاستأنف الطبيب بريمان الحديث: فتواريت عن الأنظار على الفور، بينما أخذت أراقب ما يحدث من بعيد وشعور الخوف والفضول يتصارعان ليمزقاني من الداخل، حينها وجدت الرجل المسكين يحاول الهرب ولكن ما لبث وأن تعثر أرضًا ليلتفت في هلع نحو المخلوق الذي كان متوجهًا نحوه

بخطواتٍ ثابتة مهيبة حتى وصل إليه، فوجدت الرجل المُلقى على الأرض يتفوه بمفردات لم أستطع تمييزها، ولكن كان جلي من نبرة صوته أنه يتوسل للمخلوق الآخر من أمامه، وحينها أقبض الأخير بيده على قدم الأول ليحلق به عائدًا للسماء، بينما ظل الرجل يصرخ حتى فاض صدره، ثم عاد إلى بروفيسور هادسون وهو يردف: ما زلت أتذكر صوت الرجل وهو يصرخ في حلق السماء حتى تلاشى صراخه ليعلو موضعه صوت رفرفة أجنحة هذا المخلوق.

ثم سأل بروفيسور هادسون بعد ذلك بنبرة يائسة:

- ما تفسيرك لما رأيته يومها بروفيسور هادسون؟

فأجابه محاولًا تحليل كل ما قاله له في رأسه:

- يتداول علم الشياطين أقاويل الكثير من البشر الذين رأوا تلك المخلوقات على شاكلتهم الحقيقية، وربما تكون أنت من الأشخاص المحظوظين بالمرور بتلك التجربة.

وهنا علل الطبيب بريمان طلبه للكتاب قائلًا:

- ولذلك أردت أن آخذ منك الكتاب لأعرف المزيد عن هذا العلم، فربما أمكنني معرفة ما الشيء الذي رأيته قديمًا وما زالت ذكرى رؤياه تطاردني حتى اليوم، ثم نظر بحركة تلقائية إلى الساعة في يده: لقد أضعنا الكثير من الوقت بالفعل في الحديث، هيا بنا لنبدأ الجلسة.

فسأله بروفيسور هادسون مستفسرًا:

- كم عدد الجلسات المتبقية لي حضرة الطبيب بريمان؟

- لماذا؟ هل ما زلت لا تشعر بتحسن حتى الآن؟

- على العكس، أشعر بتحسن كبير، لدرجة أني أشعر أني لم أعد أحتاج إلى المزيد من الجلسات.

فأجابه بريمان ليطمئنه:

- لا تقلق، فالجلسة القادمة ستكون الأخيرة.

****

"أنا أُدعى ديفيد"

جاء اليوم المرتقب وتحت جنح الليل المُعتم ظهر ديفيد من وسط الضباب ليتقدم بخطوات بطيئة واثقة ليعبر من البوابة، بدأ بالتحرك نحو المبنى الإداري للمصحة قاصدًا غرفة الطبيب رودجر، وبعد أن وصل إليها طرق الباب ليسمع صوت الرجل وهو يأذن له بالدخول.

دلف ديفيد والبسمة على وجهه ليجد الطبيب رودجر جالسًا خلف مكتبه، كان رجل طاعن في السن ذو جسد هزيل أحنى الزمن ظهره وطغى بالقسوة على ملامح وجهه، وما أن رأى ديفيد حتى قام ليصافحه وهو يحدثه في حنق:

- لقد تأخرت عن موعدك وظننت أنك لن تأتي.

- أعتذر لك، فالتأخير ليس من عادتي.

- من حسن حظك أنك قدمت الآن، فقد كنت على وشك القيام بالذهاب للنوم في غرفة المبيت.

- أعتذر لك مجددًا سيدي، فلم أكن أعرف أن بعض سائقي الأجرة يرفضون المجيء إلي هنا، هذا هو سبب تأخري.

- ومن يريد المجيء لهذا المكان من الأصل، إن لم يكن مضطرًا.

فتح الرجل أحد أدراج مكتبه ليخرج سيجارًا فخمًا ويبدأ في إشعاله واستنشاق أولى أدخنته وهو ينظر لديفيد بنظراتٍ متفحصة، فبدأ ديفيد بفتح باب الحديث قائلًا:

- لقد أتيت منذ دقائق، ولكني لم أجد حارس الأمن الخاص بالبوابة.

فأجابه الطبيب رودجر:

- أنت تقصد "سام العجوز"، لقد كان حارس البوابة منذ ما يقارب من خمس سنوات، أما الآن فهو نزيل لدينا منذ عدة أشهر ماضية، ثم استنشق الدخان مرةً أخرى ليعود ليلفظه وهو يردف: لقد أصابته العدوى من أحد النزلاء، ولم نجد منذ حينها من يحل محله.

- ألا تخشون أن يغور أحد على المكان وهو دون حراسة؟

فأجابه الطبيب رودجر مستهزءًا:

- وما الذي سوف يحصل عليه في المقابل؟ لا يوجد شيئًا هنا ليحصده أحد سوى المرض والموت.

- بل أعتقد أن هذا المكان لديه الكثير من الحصاد لمن يشتهيه.

خرجت الكلمات عفوية من فاه ديفيد والتي لم يكن من المفترض أن يبوح بها، وقد لفتت تلك الكلمات انتباه الطبيب رودجر، فنظر إليه بتشككٍ وهو يسأله:

- لماذا لا تخبرني بما تريد معرفته مني لكي ننتهي من هذا اللقاء في القريب؟

- حسنًا، لنبدأ بأول سؤال، كم مريض يختفي؟ أقصد يتوفى على مدار الشهر.

لا أحد يعلم سبب هذا الحديث العبثي الذي صدر عن ديفيد، لربما هي ثقة زائدة لديه فيما سوف يحدث لاحقًا، لربما لم يستطع كبح جماح غضبه لما يحدث لهؤلاء البشر المساكين على يد هذا المخلوق، لربما هو يلهو بضحيته القادمة مثلما يلهو القط بالفأر قبل قتله، حتى ديفيد نفسه لا يعلم السبب.

حملق الطبيب رودجر بحنق نحو ديفيد ليجيبه بصبرٍ يكاد ينفذ:

- كوننا نستقبل الحالات المتأخرة فإن نسبة الوفيات لدينا أكثر من مصحات الجُذام الأخرى.

- هل تقصد أن مخزون المكان من البشر قد بدأ ينفذ؟

- ما الذي تقصده بهذا الحديث؟

- لا شيء، أين بقية طاقم العمل اليوم؟ لم ألمح أحد في الجوار منذ مجيئي!

- إن آخر فرد في التمريض يعود لعائلته بعد أن يغلق غرف المرضى للنوم، وأتواجد أنا لبقية الليل حتى يأتي الممرض الآخر في الصباح.

- يبدو أن هذا هو الأفضل للجميع، الممرض يعود لأسرته وأنت تفعل ما يحلو لك دون رقيب.

نهض رودجر من مقعده بحركة عصبية أطاحت المقعد ليسقط جانبًا على الأرض، ثم تحرك سريعًا لينحني ويقترب بوجهه من وجه ديفيد وهو يحدثه بنبرة متوعدة قائلًا:

- أنت تتحدث عن أشياء إن بدت لك سوف تسؤك، ولربما ينتهي بك الأمر إلى حال أسوأ من نزلاء هذا المكان بكثير.

نهض ديفيد من مكانه وهو يجيبه في سخرية:

- يا لحظي العسر، يبدو أنك لم تتناول عشاءك بعد، أليس كذلك؟

صاح الطبيب رودجر بديفيد عاليًا وهو يشير إلى باب الغرفة في غضب:

- فلتغرب عن هنا في الحال، والأفضل لك ألا تعود مطلقًا.

تحرك ديفيد على هداه نحو الباب، ثم أمسك بمقبضه وهو يلتفت برأسه نحو الطبيب رودجر ليحدثه قائلًا:

- هلا أوصلتني للخارج من فضلك؟ فأنا أخشى أن يدفعني فضولي الصحفي للتلصص داخل المكان.

تحرك حينها الطبيب رودجر ليتقدم ديفيد نحو الطرقة وهو يهمهم بحنق:

- سوف يكون لي حساب عسير مع ذلك الأحمق برنارد لتدبير هذا اللقاء السخيف معك.

استأنف الرجلان طريقهما حتى وصلا للطابق الأرضي، وما أن وطأت قدم ديفيد آخر درجة في السلم حتى وجه حديثه للطبيب رودجر قائلًا:

- لدي طلب أخير قبل أن أغادر هذا المكان، هلا أشرت لي إلى أقرب دورة مياه لديكم، ثم عاد ليستأنف حديثه على الرغم من النظرات المتأففة له من قبل الطبيب رودجر، ليتحدث قائلًا:

- الأمر لا يحتمل الانتظار والمسافة في طريق العودة طويلة.

أشار إليه الطبيب رودجر للأعلى وهو يزفر أنفاسه بحنق ليجيبه:

- فلتصعد إلى الطابق الأول مجددًا وستجده على اليمين فور صعودك.

التفت ديفيد للوراء وبدأ بصعود درجات السلم مجددًا عائدًا إلى الأعلى.

- إني أضعك نُصب عيني، لا تنس ذلك.

توقف ديفيد للحظات فور سماعه صوت الطبيب رودجر من خلفه، ثم عاد ليصعد مجددًا في هدوءٍ.

مرت لحظات من الصمت على المكان والطبيب رودجر يحسب الدقائق التي تغيبها ديفيد بالداخل، ليظهر بعد ذلك صوت خطوات بطيئة قوية الصدى تخطو للأسفل يصاحبها صوت تلامس براثن ثقيلة لموضع وطئها، فالتفت الطبيب رودجر إلى الأعلى وهو يسترق السمع في تشكك محاولًا تمييز الصوت الذي يسمعه، لينفض تركيزه إثر ظهور صوت خوار عالٍ طغى على صوت ما كان يسبقه، حينها بدأ بالتراجع للخلف وهو يدرك أن ما سوف يأتي لاحقًا لن يؤول إلى خير.

تحرك الجرول بخطواته الثقيلة وخواره الغاضب ليصل إلى الطابق الأرضي ليجد أن الغيجور قد بدأ بالركض بعيدًا عابرًا الحديقة فور رؤيته له، تحرك الجرول على هدى ثم زاد من سرعته أكثر فأكثر لتطاير الأعشاب من حوله وهو يحرث ببراثنه الأرض من تحته، حتى بدأ يقترب من الغيجور الذي وقف قبالة بوابة السور بأمتارٍ قليلة يحاول التقاط أنفاسه واستعادة طاقته التي يبدو أنها استُنفذت وأصبح غير قادرًا على إكمال محاولته للهرب.

تحرك الجرول ببطءٍ وهو يصب نظره نحو الغيجور الدميم يتأمل جيدًا هيئته الحقيقية، كان الغيجور ذو محجرين خاويين مجوفين، يتراصف داخل فمه الضيق أسنان صفراء رفيعة بجانب بعضها كأسنان المشط الدقيقة، يكاد يبرز قفصه الصدري الشبيه بالبشر من خلف الجلد الرقيق الشاحب له، تقدم الجرول خطوة للأمام فأخذ الغيجور يطيح ببراثن يديه في الهواء للأمام، وكأنه يحاول إخافة الجرول من التقدم أكثر من ذلك، وحين اقترب الجرول بما يكفي منه أطاح الغيجور يده بقوة لتلطم براثنه الجزء الأيسر من وجه الجرول بقوة جعلت وجهه يميل معها.

زمجر الجرول في غضبٍ بينما دمى الجرح الغائر في وجهه ليعيد موضع رأسه للأمام وهو يجز على أنيابه مزمجرًا، فحاول بغتة قطم ذراع المخلوق ليفلت

ذراعه من بين أنياب الجرول التي أطبقت على بعضها البعض في الهواء، ثم حاول الغيجور العودة مرة أخرى للهرب، ليتوجه نحو بوابة السور ويركض خارجه، فتبعه الجرول بنظره وقد شعر بعودة غريزته كمفترس مهيمن في مطاردة فريسته، ليخرج سريعًا وراء الغيجور مقتفيًا أثره.

ركض الغيجور تجاه الطريق المُشجر وهو يتلفت من حوله بحثًا عن مطارده، كان يقتحم سكون المكان من حوله صوت زئير تعزر عليه تمييز موقعه، فاكتفى بالهرولة دون هدف سوى الابتعاد عن المكان آملًا في أن يضل مسعى الجرول في العثور عليه، لكنه توقف في مكانه بغتة فور مشاهدته للجرول من أمامه وهو يشق قلب الضباب متوجهًا ناحيته في تربص، وبنظرات متوعدة بالنهاية المحتمة على يديه، فتراجع الغيجور حينها للخلف بخطوات لا إرادية حتى كفّ عن فعلته والصق ظهره بأحد الأشجار وقد أدرك أنه لا مجال للفرار، ليتقدم الجرول حتى وصل إليه ثم وثب نحوه ليطبق بأسنانه الحادة في رقبة الغيجور بقوة ليقتطع ما سكن منها أسفل الحلق، ثم ابتعد بعد ذلك خطوات للخلف وهو يشاهد رقبة الغيجور وهي تذرف سائل سميك أسود اللون من الشرايين المتهتكة لرقبته، محاولًا دون جدوى وضع يديه على موضعها لإيقافها، بينما تدفق السائل أيضًا من بين أسنانه التي كان

يجز عليها بغضب كمن ينازع للاستمرار في حياة ليست من حقه، حتى مرت لحظات ليفتح فاه وتتدلى يديه ويتراخى جسده ليسقط جثة هامدة على الأرض معلنًا عن ثاني حصاد لوريث مملكة الجحيم المرتقب.

الفصل السادس

"منزل آل جرين"

الساعة الآن الواحدة صباحًا، أفاق الرجل من غفوته بغتة على صوت المنبه ليهب نحوه في عجالة ويغلقه، التفت جانبه ليجد زوجته نائمة على جانبها الأيسر كعادتها لا يدرك منها سوى ظهرها، أخرج نفسه من الفراش بهدوءٍ شديد حتى لا يوقظها وخرج من الغرفة على أطراف أصابعه، تحرك نحو غرفة مجاورة قاصدًا خزانة الأدوية التي بها ليحضر أدوية زوجته، فقد حان موعد تناولها، لقد مرت أيام عدة على معرفتهما بالمرض اللعين الذي يلتهمها من الداخل، ومنذ حينها وهما يحاولان اصطناع التأقلم والرضا بالأمر الواقع، فتح الخزانة في هدوء وأخذ ينظر في حُزن للأدوية وهو

يحصوها، كان أغلبها مسكنات للألم تساعد على الصبر على العِلَّة ولكن لا تُشفي منها، فقد فات أوان العلاج ولكن ربما تخفف تلك المسكنات من الآلام التي غدت لا تبارحها، تحرك مجددًا عائدًا إلى الغرفة لزوجته، لم يكن يريد أن يوقظها فهي بالكاد تنام بضع ساعات في اليوم، ولكنه سوف يضطر لإيقاظها لتتناول المسكنات لئلا تستيقظ صارخة في الليل من الألم كعادتها، جلس بهوادة على الفراش بجوارها قائلًا بصوت هادئ:

- استيقظي يا حبيبتي.

لم تنتبه زوجته لما قال فأعاد عليها الحديث مرة أخرى، ولكن يبدو أنها قد نامت وهي متعبة لتغط في نومٍ عميق لا يزعزعه الصوت الهادئ، فمد الزوج يده بهدوء ليمسك كتفها وهو يحدثها مرة أخرى قائلًا:

- استيقظي لقد حان موعد الـ...

مشاعر صادمة قد باغتته حين شعر بتخشب جسد زوجته حين وضع يده عليها، فحاول تحريك جسدها قائلًا:

- حبيبتي، استيقظي.

جذبها زوجها من كتفها لتستقر بظهرها على الفراش، وحينها رأى ملامح وجهها ولونه الشاحب الذي تغير بعد أن حدث المحتوم، لقد وافتها المنية.

نهض الرجل من مجلسه مصدومًا والدموع تُرورق عينيه ليحدثها في انهيار:

- أرجوكِ لا تتركيني وحدي.

ثم انكفأ على الفراش ليسكن رأسه فوق صدرها وهو يحتضنها بقوة وهو يبكي، محدثًا نفسه: أنا لن أستطيع العيش بدونك.

لم تمر لحظات من بكائه بين أحضان زوجته حتى سمع صوت حشرجة آتٍ من شرفة الغرفة، فرفع رأسه للأعلى ليسترق السمع لهذا الصوت، حينها ترك زوجته ونهض سريعًا متوجهًا نحو الشرفة، ولكنه لم يجد أحدًا بها، حينها دلف إلى داخلها ليطل برأسه من سورها إلى الخارج نحو الشارع، وحينها وقعت عيناه على جسد ضخم أسود اللون لم يستطع تبين ملامحه، يتواجد خارج سياج الحديقة ويهم بالهروب.

لم يدرِ الرجل ما يحدث له فوجد جسده يقوده ليركض نحو السلم ويكتنز درجاته في وثبتين أو ثلاث قام بهم بحركة تلقائية، منطلقًا نحو الباب إلى الخارج ليطارد هذا المخلوق الذي شرع في الهروب، وما أن وصل إلى مكان

تواجده الأخير حتى فقده، فأخذ يتلفت حوله في الشارع المظلم الخاوي من أي ملامح للحياة، حينها لمح بصعوبة المخلوق وهو يلوذ بالفرار بعيدًا عنه، فعاد ليركض وراءه مجددًا مطاردًا إياه، ولكن باءت محاولة الرجل للحاق بالمخلوق بالفشل، فكلما أوشك على اللحاق به راوغه مجددًا واستطاع الإفلات منه، حتى تمكن من الاختفاء عن نظره كليًا، حينها توقف في وسط الطريق وقد أحنى ظهره من شدة الإرهاق بينما كان يحاول التقاط أنفاسه المتقطعة، لم يعلم ماذا عليه أن يفعل أو حتى ما الذي عليه أن يشعر به، هل عليه الشعور بالحزن على زوجته، أم الغضب من فشله في اللحاق بالمخلوق، أم شعوره بأنه على حق منذ الوهلة الأولى فيما كان يعرفه من حقائق ولم يصدقه أحد، تمنى لو رأت يومًا ما يراه من حوله، تمنى لو أيقنت أنه على حق قبل أن تفارقه.

****

"الطبيب بريمان، للأمراض النفسية والذُهانية"

توجه القس جوناس إلى حانة "كاردل" بعد انتهائه من عمله كالمعتاد، تحرك نحو طاولة المشروبات ليحيي النادل ثم تحدث مع أحد الجالسين هناك حتى أعد له النادل المشروب الخاص به، فأخذه وبدأ بالتحرك نحو الركن الذي اعتاد الجلوس به في الحانة، كانت أجواء المكان هادئة نوعًا ما ذلك اليوم مما سمح له برفاهية الاختيار بين عدة طاولات شاغرة، وأثناء ذلك لمح الطبيب بريمان يجلس على أحد الطاولات مُنكب على مطالعة أحد الكتب في تركيز تام، بينما يدون ملاحظات سريعة في كُتيب آخر موضوع أمامه فقرر الذهاب إليه ليصافحه:

- لم أتوقع رؤيتك هنا!

رفع بريمان رأسه ليبصر القس جوناس أمامه فأجابه:

- الأب جوناس، مرحبًا.

أزاح القس جوناس المقعد قليلًا ليجلس عليه، وما أن جلس حتى سأله:

- ما الذي تفعله هنا؟

- لا شيء، مجرد عمل كالعادة، وأنت ما الذي تفعله هنا؟

فأجابه القس جوناس قبل أن يرفع كوب العصير نحو فاه قائلًا:

- لقد جئت لاحتساء بعض العصير وسأعاود الرحيل.

تأمل الطبيب بريمان الكوب الذي يمسكه القس جوناس ثم تحدث متسائلًا:

- لطالما تساءلت ما الذي تفعله هنا في مثل هذا المكان؟

فنظر له القس جوناس وهو لا يفهم ما يرمي إليه، فاستأنف حديثه مفسرًا:

- إن مقصدي هو ما الذي يجعل رجل دين يأتي كل يوم بعد انتهائه من عمله إلى مكان مليء بالآثام والآثمين؟ أعني لابد أن هناك سببًا يتعدى كوب العصير الذي تمسكه.

أتت ابتسامة هادئة من القس جوناس بعد سماع ما قاله بريمان له، فأخذ يملس بأنامله على المنضدة من أمامه وهو يطيل النظر نحوها في صمت، ثم عاد ليجيب على تساؤل بريمان له وما زال مُثبت النظر نحو الطاولة قائلًا:

- أتعلم شيئًا أيها الطبيب؟ لقد كنت في يومٍ ما شخص مختلفًا عمن تراه الآن، قبل أن أسلك درب الكهنوت، ثم رفع رأسه نحو بريمان ليردف قائلًا: سوف أقص عليك ما لم أبح به لأحدٍ من قبل.

أثارت تلك الجملة الفضول داخل الطبيب بريمان، فتمجلس بتركيز أكثر ليستمع لما يحدثه القس جوناس به:

- ما زلت أذكر تلك الأحداث الماضية كأنها البارحة، كنت شابٌ طائشًا لا أعبأ بما يدور حولي في الحياة، كل ما كان يشغلني هو الفتيات والخمر وقضاء الوقت مع أصدقائي، وفي يومٍ ما صارحنا أحد أصدقائنا بفكرة سرقة منزل مجاور له لعجوز ثرية تعيش وحيدة، كان صديقي متيقن من أن المرأة تملك من المال في المنزل ما يغنينا لسنواتٍ طوال، وبالفعل آثار المال الشهوة في النفوس وقرر الجميع الانخراط فيما يخطط له صديقنا فيما عداي، لم يكن بداخلي أي وازع ديني أو حتى أخلاقي حينها، ولكني شعرت بعدم الارتياح الشديد للفكرة المطروحة، ولكن لم يتطلب الأمر الكثير من الوقت حتى عدلت عن قراري، ووافقت على مضض تحت إلحاح وضغط أصدقائي.

ثم هدأ للحظة ليمسك كوب العصير بيده ويحتسي منه القليل قبل أن يستطرد الحديث: وفي اليوم الموعود اتفقنا على قضاء يومنا كعادتنا في الحانة، ثم الذهاب ليلًا للتسلل إلى منزل العجوز، وبالفعل سبقني الجميع لمركبة أحد أصدقائنا بينما تأخرت عنهم بسبب دخولي لدورة المياه لقضاء حاجتي، ثم تحركت بعد ذلك متوجهًا للخارج بخطوات بطيئة وأنا شارد الذهن، وشعور الضيق في صدري لا يبارحني ويثقل قدمي عن التقدم أكثر، ثم التفت ليشير بيده نحو طاولة قريبة من باب خروج الحانة وهو يستأنف حديثه: هناك بالتحديد، كان يجلس "الأب نولان" على تلك الطاولة، ثم التفت عائدًا بوجهه نحو بريمان: لا أعلم هل ما حدث حينها كان من صنيع القدر أم البشر، ولكن كل ما أعرفه هو أنه قبل أن أتحرك إلى الخارج وقعت عيناي على الأب نولان وهو جالس على تلك الطاولة، حينها وجدت نفسي أجلس في المقعد المواجه له دون أن أنبس بكلمة، ولكني وجدت ابتسامة ترحيب على وجهه، ألقت الراحة في قلبي وشجعتني على إفراغ مكنونات صدري، فتحدثت وكأني أعرفه منذ سنين وأخبرته عما سوف أقدم عليه لاحقًا، حينها تطرق حديثنا إلى مواضيع شَتَّى، كان الأب نولان يحاول أن يُريني أن هناك في الحياة ما يستحق التفاني من أجله في فعل الخير، ومهما حاولت كشاب ناقم على حياته الإتيان بأسباب ومبررات دنيوية لما أفعله في حياتي، أدحض

حججي بمبررات أكثر وأقوى من أن أستطيع مجادلته فيها، وبمُضي الوقت والحديث معه سرعان ما أدركت أنني تارك حسابات الحياة الأخرى على حساب الحياة الأولى.

ثم عاد القس جوناس ليتجرع من كوب العصير مجددًا ثم ظل ممسك به في يده وهو يستأنف ما كان يرويه قائلًا: حينها أتى أحد أصدقائي من الخارج وهو يتأفف من كثرة انتظارهم لي ليستعجلني، وما بي إلا أن التفتت له وحدثته بجملة واحدة "أنا لن أذهب معكم" حينها رمق صديقي الأب نولان بنظرة سخريه وهو يقول لي: هل أثر بك هذا العجوز؟ ثم انحنى قليلًا ليحدثني بصوتٍ خفيض قائلًا: "أتعلم؟ إن جلوسك بجانب قس لن يجعل منك قس أنت الآخر" ثم تركني عائدًا إلى أصدقائنا وغادروا من دوني، ثم نظر للطبيب بريمان وقد استأنف قائلًا: ولكن يبدو أن الحديث الذي قاله صديقي القديم قبل أن يُقتل في تلك الليلة كان خاطئًا، فقد غدوت بدوري قس بالفعل.

نظر بريمان إليه بتعجبٍ وكاد أن يسأله عن سبب موت صديقه في نفس الليلة، إلا أن القس جوناس قد وفر عليه إضاعه الوقت وأجابه بمفرده على السؤال الذي لم يُطرح، معللًا:

- ما لم نكن نعلمه حينها أن صديقنا صاحب فكرة السرقة كان يحوز سلاح ناري مسروق كخطوة احتياطية إن ساءت الأمور، وهذا ما حدث بالفعل، فأحد جيران السيدة العجوز قد اكتشف وجودهم وأبلغ السلطات التي أتت على الفور، ومات اثنان من أصدقائنا في تبادل إطلاق النار، بينما سُجن الأخير لأعوام توقفت منذ زمن بعيد عن إحصائها.

ثم وضع كوب العصير من يده على الطاولة وباعد يديه وهو يبتسم قائلًا: وها أنا ذا، آتي كل يوم إلى هذا المكان، لعلي أستطيع أن أُسدي أحدًا الصنيع مثلما فعل معي الأب نولان، لعلي أنير ضوءًا خافتًا في ظلام نفس بشرية فترى الضوء مرة أخرى، فالجميع، وأعني الجميع يستحقون فرصة ثانية.

انتهى القس جوناس من حديثه المُلهم ليجد الطبيب بريمان ينظر نحوه وملامح الاستخفاف تملأ وجهه، الأمر الذي أثار تعجبه للغاية، فظل صامتًا لا يعرف ماذا يقول، ولكن لم تمر لحظات حتى أفصح الطبيب بريمان عما في داخله:

- هل تعلم ما الذي يثير سخريتي يا أبتاه؟ إن كلانا يسمح له عمله بالتوغل داخل النفس البشرية ومعرفه ما تضمره ولكن كلانا يبصر أمرًا مختلفًا عن الآخر كليًا، ها أنت هنا تحاول أن ترى النور في ظُلمات نفوسهم بينما هناك

نفوس لديها من الظلمة ما يكفي لتعتيم هذا العالم بالشر والكراهية، هناك من يستحقون العيش حيث ينتمون في الجحيم دون أدنى شعور بالشفقة تجاههم، فكلما طال بقائهم على قيد الحياة كلما زاد الفساد أكثر، إنهم لا يستحقون لقب بشر بل إنهم مجرد شياطين من الجحيم لا يجب أن يتواجدوا وسطنا ولو للحظات قليلة.

ثم أمسك الكتاب الذي كان يطالعه قبل قليل ليرفعه في وجه القس جوناس وهو يكمل في عصبية واضحة: إن بعض البشر وحوش لا يَفرقون عن هؤلاء في شيء، ولذلك يجب أن يذهبوا إلى هذا المكان حيث ينتمون وفي أسرع وقت.

نظر القس جوناس إلى الكتاب الذي كان بريمان يحمله، فلقد كان يحمل الكتاب الخاص بعلم الشياطين، والذي كان قد أعطاه له بروفيسور هادسون في آخر زيارة له، وحاول مراعاة حالتيّ التوتر والعصبية اللتان كانتا تتجليان في نظرات وحديث بريمان، ليحدثه بنبرة هادئة محاولًا تهدئة روعه:

- يبدو أن عملك في التعامل مع النفس البشرية قد أثقل كاهلك مثل عملي أيضًا، ثم مال للأمام قليلًا ناحية الطبيب بريمان وهو يردف: إن نفسك مُحَملة

بالهموم والآثام يا صديقي، وتحتاج إلى إزاحتها عنك، ما رأيك أن تأتي للكنيسة في الغد؟ فأنت تحتاج للاعتراف لكي يريحك من مكنونات صدرك.

ضحك الطبيب بريمان باستخفاف لما اقترحه القس جوناس عليه ليجيبه:

- آثام؟! هل غدوت آثمًا لأني أتمنى خلاص البشرية ممن يعيثون في الأرض الشر والفساد.

ثم نهض من مجلسه بغتة وبدأ في توضيب أغراضه في عصبية واضحة استعدادًا للقيام ليهمهم وكأنه يحدث نفسه وهو يقول: لعلك محق، لربما سيأتي الوقت الذي سوف أحتاج فيه للاعتراف بما أشعر به حقًا، ثم تحرك مغادرًا في عجالة بعد أن نظر للقس جوناس في عينيه وهو يردف: لا تقلق يا أبتاه، لربما سوف أرتكب إثمًا يستدعي الإتيان لك في القريب، ولكن ليس الآن.

****

"أنا أُدعى ديفيد"

طرقٌ شديدٌ على باب المنزل أجفل ديفيد من نومه ليقوم منتفضًا من فراشه ويهب سريعًا ليفتحه، فما به إلا وأن وجد زاركن من أمامه ليدلف في عجالةٍ إلى الداخل وهو يحدثه قائلًا:

- أسرع يا ديفيد بارتداء ملابسك، فلا وقت لدينا.

- عما تتحدث يا زاركن؟

- لقد أُتيحت لنا فرصة الاقتناص من المخلوق الأخير الذي سوف تتحقق به غايتنا.

تحرك ديفيد على الفور ليرتدي ملابسه، ثم عاد لزاركن ليتوجها إلى الخارج، وبوصولهما إلى الشارع أشار زاركن إلى مركبة أجرة ليستقلاها ويجلسا بالأريكة الخلفية بها، وما أن باتا بالداخل حتى صاح زاركن على السائق قائلًا:

- توجه إلى كنيسة "ذا شيبرد" في الحال.

تحركت المركبة في عجلة من أمرها نحو وجهتها، وبدأ زاركن يُطلع ديفيد على ما يحدث: لا يوجد وقت كثير للشرح، ولكن كل ما عليك معرفته الآن هو أني قد حددت أخيرًا موقع المخلوق المتبقي والذي سوف تتحقق به غايتنا الأخيرة، وسوف نستطيع بعد ذلك العودة إلى عالمنا مرة أخرى، ولكن يجب أن نسرع فبعد بضع ساعات سيكون قد فات الأوان.

التفت زاركن إلى المِرآة الأمامية التي تعكس النظر لسائق المركبة والتي كان ينظر بها السائق نحو الاثنين بغرابة وتعجب لا يُلام عليهما، ولكن هذا لم يكن مقبولًا لدى زاركن الذي صاح به في غضب:

- علام تنظر أيها الأبله؟! قد نكون في نظرك شخصان معتوهين يتفوهان بالهراء، ولكننا نسديكم صنيعًا ربما لا تستحقونه.

ثم انتفض زاركن من مجلسه في الخلف ليدنو بوجهه نحو أُذُن السائق متحدثًا بصوتٍ خفيض ظاهره الهدوء وباطنه الوعيد:

- تأمل جيدًا هذا القناع، فحينما تأتي للجحيم ربما سوف تحتاج للتوسل إليه كثيرًا لكي يرحمك.

ظل الرجل ينظر نحو الطريق من أمامه وهو يتصبب عرقًا دون أن ينبس بكلمة أو يرفع نظره عن الطريق، فعاد زاركن إلى مجلسه مرة أخرى، ثم دس يده بداخل معطفه ليخرج قِنّينة التحول ويعطيها لديفيد فأخذها منه وهو في حيرة من أمره فتلك الخطوة سابقة لأوانها، فما زال أمامه خطوة تدبير موعد ولقاء يتيحان له استعمال الترياق دون افتضاح أمره، كما أن الوقت ما زال صباحًا فحتى حُلْكَة الليل ليست متاحة لكي يتوارى بها، فبهذه الطريقة سوف ينكشف أمره لا محالة، فخرجت الكلمات منه بنبرة يعلوها القلق:

- أليس من المفترض أن نتأنى قليلًا، ونضع خطتنا قبل...

صاح زاركن به في غضبٍ مقاطعًا إياه:

- ليس هناك وقت لذلك، ثم هدأ عن الحديث لوهلة وكأنه يستعيد رباطة جأشه قبل أن يردف: فلتنصت إلى جيدًا، أنا أعرف ما تفكر به وصدقني كل ما اعتدنا فعله سابقًا ليس لنا حاجة به الآن، فبمجرد أن تُجهز على هذا المخلوق سنرحل إلى عالمنا في لحظات، وحينها لن يعنينا ما سيحدث بعد ذلك في هذا العالم.

هدَّأ حديث زاركن من روع ديفيد قليلًا فأومأ له برأسه وهو يحدثه:

- حسنًا، اعطني بقية المعلومات التي أحتاج إليها.

- في القريب سيقوم مخلوق من مخلوقات "اليورجن" بفتح بوابة للعبور بين العالمين وسيتمكن من تهريب مئات من مخلوقات الجحيم إلى هنا، وسوف يقوم بعمل بذلك بعد بضع ساعات من الآن داخل كنيسة ذا شيبرد.

نظر إليه ديفيد باستنكار:

- وكيف استطاع هذا المخلوق الدخول إلى كنيسة من الأصل؟!

خرجت صوت قهقه من خلف قناع زاركن، وقد اهتز كتفاه قليلًا وهو يجيبه:

- يبدو أنك ما زلت تستهين بمخلوقات عالمنا، ثم استطرد حديثه بنبرة جادة: إن مخلوق اليورجن يختبئ في عالم الأرض على هيئة قس هذه الكنيسة.

تسمر ديفيد بجسده ووجدانه من هول ما سمعه فظل صامتًا لا يدري ما يقول لولا أن طرأ أمرٌ جديد على الموقف، فقد تباطأت المركبة تدريجيًا لتتوقف في النهاية أمام كنيسة صغيرة، فترجل ديفيد من المركبة والتف للجانب الآخر منها نحو زاركن وهو يحدثه:

- ها قد حان الوقت.

- بالتوفيق يا صديقي.

التفت ديفيد بجسده نحو الكنيسة ثم عاد سريعًا ليلتفت مجددًا لزاركن ليحدثه من النافذة ويسأله:

- وماذا عن البشر بالداخل؟ ربما سيصيبهم الأذى جراء ما سوف يحدث!

فأجابه زاركن في برودٍ:

- بالنسبة لي فأنا لا يعنيني الأمر، ولكن إن كنت تكترث لأمرهم كثيرًا فحاول أن تستدرجه إلى مكان بعيد عنهم إن استطعت.

نظر إليه ديفيد دون أن يتحدث وكأنه يفكر في كيفية تدبير هذا الأمر، فما كان من زاركن إلا أن التفت بوجهه نحو السائق وهو يحدثه قائلًا:

- ماذا تنتظر؟ فلتتحرك أيها البشري التعس.

انطلقت المركبة مغادرة المكان بينما تحرك ديفيد قاصدًا الكنيسة، بل وإن صح التعبير قاصدًا المخلوق الذي بداخلها.

تحرك ديفيد بخطوات بطيئة وباله منشغلًا فيما سوف يفعل لاحقًا، حتى إنه بالكاد رفع رأسه لوهلة ليتأمل تلك الكنيسة الصغيرة في تلك البلدة التي حُكم

عليها أن تستضيف قصته هو ومخلوقات عالمه، كان يشغل بال ديفيد شيئًا واحدًا فقط وهو عدم إيذاء الأبرياء الموجودين في المكان، فحتى إن لم يكن ينتمي لهم فسوف يحاول حتى لحظاته الأخيرة في هذا العالم الحفاظ على حياتهم.

صعد درجات السلم القليلة المؤدية للمدخل وقبل أن يدلف تراجع خطوات قليلة ليفسح الطريق لرجل وزوجته لكي يخرجا، ثم عبر البوابة وهو ينظر في أرجاء المكان بعينٍ فاحصة عن مبتغاه.

كان هناك في الكنيسة أُناسٌ يتضرعون في خشوعٍ، بينما كان بعض من الأطفال يمرحون ويركضون خلف بعضهم في براءة تامة، وقد كانت تنظر إليهم إحدى الراهبات بابتسامة ودودة وهي تتحرك على مقربة منهم حاملة بعض الكتب، فتحرك ديفيد نحو الراهبة ليستوقفها قائلًا:

- المعذرة يا أختاه!

تمهلت الراهبة لتنظر إليه متبسمة، فاستطرد حديثه:

- إني أحتاج للحديث مع القس في شأن هام للغاية.

فأجابته بهدوء:

- لا تقلق، إنه قادم على أي حال بعد بضع دقائق.

ثم همت بالتحرك لولا أن استوقفها مجددًا ليردف قائلًا:

- أنتِ لم تفهمي مقصدي، إني أريده في أمرٍ شخصي شديد السرية، ولذلك أحتاج أن أتحدث معه على انفراد بعيدًا عن أي شخص هنا.

ظنت الراهبة أنها قد فهمت مقصده فحدثته بنبرة هادئة لتجيبه:

- أنا أتفهم ذلك يا سيدي، فجميعنا نحتاج للاعتراف بما يثقلنا من الحين للآخر، فلتتفضل معي إلى غرفة الاعتراف وسوف أستدعيه لك.

- أيتها المسكينة الغافلة، هل هذا ما ظننتيه من حديثي لكِ؟! لا يهم، طالما أنكِ سوف تجعلينني انفرد بهذا المخلوق بعيدًا عن الأبرياء كي لا يطولهم الأذى.

حدث ديفيد نفسه بذلك وهو يتبع الراهبة التي تقدمته بخطواتٍ نحو ممر طويل يقع في نهايته بهو صغير تتوسطه غرفة الاعتراف، والتي كانت عبارة عن كشك خشبي كبير الحجم له مدخلان يسترهما ستارتان مخمليتان، فتحت الراهبة ستار أحد المدخلين لغرفة الاعتراف ليدلف ديفيد إليها ويجلس على أريكتها الخشبية وقد حدثها قبل أن تغلق الباب وهو يقول:

- أرجو أن تسرعي في استدعائه أختاه.

ابتسمت الراهبة وهي تجيبه قبل أن تقفل الستار:

- لا تقلق، سيأتي الأب جوناس إليك بعد لحظات.

الفصل السابع

"منزل آل جرين"

الأمطار الغزيرة تنهمر على المكان وحضوره، تُغرق الناس من تحتها لتمتزج قطراتها بدموع الوجوه المنتحبة، يعلو صوت اصطدامها بالأرض فوق أنين المحبين، يجاهد القس ليعلو صوته فوق صوت هطول الأمطار ليسمعه الحاضرون، بدأ في صلاة القداس على الزوجة المتوفية، كان يقف أباها وسط بقية الأسرة ينتحبون وألم الفراق يمزقهم إربًا وهم يرون النعش يخطو أسفل فأسفل حتى استقر في باطن الأرض، أجهش الأب بالبكاء مع آخر حفنة من التراب وُضِعَت فوق قبرها، وعلى الرغم من الألم الذي يعتصر قلبه حزنًا

على ابنته إلا أن الغضب كان هو الشعور الطاغي داخل نفسه، كان يشعر بالغضب تجاه زوجها ينظر صوبه بعينين لوامتين لما حدث لابنته، فقد شعر أن آخر أيام حياتها كان من المفترض أن تقضيها في راحه نفسية وجسدية، وليس ما كانت تعانيه من مشقّة في محاولة إعانة هذا الزوج الفاشل الذي ربطت مصيرها به، ناهيك عن الإرهاق الذي حل عليها من العيش مع شخص بات في نظره ونظر الجميع شخصٌ مجنونًا، لربما تسبب هذا الإرهاق في المعيشة معه في التعجيل من تدهور حالتها وازديادها سوء، هو ليس متيقنًا من ذلك ولكن كل ما هو متيقن منه هو أنه بات يكره زوجها.

لم يكن الزوج يدرك نظرات الكراهية التي يرميه والد زوجته بها، كان غارقًا في بحر شروده، فهو في داخله يعترف أنه لا يشعر بالحزن كما ينبغي، لربما ما زال غير مدرك لما حدث، وكان الشيء الوحيد الذي انتشله من شروده هو يد شخص ما تربت على كتفه بتهذيب، فالتفت ليبصر رجلًا يقف بجانبه وقد بدأ يحدثه قائلًا:

- صباح الخير يا سيدي.

فأجابه الزوج في هدوءٍ:

- صباح الخير.

- أعرفك بنفسي، أنا...

حدثه الزوج قائلًا:

- أنا أعرف من أنت، لقد حدثتني زوجتي عنك من قبل.

- تعازي الحارة لك يا سيدي، لقد حزنت للغاية حين...

قاطعه الزوج على الفور دون أن يكترث بما كان يحدثه به ليسأله:

- قل لي، لماذا لا أشعر بالحزن على زوجتي الراحلة؟

فأجابه الرجل:

- أنت تمر بصدمة نفسية سببها حزنك الشديد على زوجتك، فعقلك يرفض تقبل فكرة فقدانها، ولكنك ستتحسن مع مرور الوقت، ثم عاد هذا الرجل ليستأنف الحديث مواسيًا إياه: لقد كانت زوجتك تحبك كثيرًا، حتى حينما عِلمت بمرضها كان همها الشاغل هو مساعدتك.

أطال الزوج الصمت وقد بدا أنه سيعود للإبحار في شروده مجددًا فاستطرد الرجل حديثه في عجالة:

- ربما سيكون من الأفضل أن تأتي لتشرفني في عيادتي لنحتسي القهوة، ونتحدث قليلًا:

استشاط وجه الزوج غضبًا لما حدثه الرجل به ليحاول تهدئته قائلًا:

- ليس هناك داعيًا للغضب سوف نتحدث قليلًا لبعض الوقت، وإن لم تسترح للأمر يمكنك المغادرة وقتما تشاء، ثم استأنف حديثه: صدقني يا سيدي لقد كانت زوجتك ترغب في ذلك بشدة، ربما حين تُنفذ ما كانت تريده منك ستكون سعيدة في قبرها.

فنظر الزوج نحو قبر زوجته وهو يحدثه:

- لقد كان هذا بالفعل طلبها الأخير مني.

فعاد الرجل ليردف قائلًا:

- هذا إلى جانب أنه سوف يفيدك للغاية التحدث مع أحد بخصوص زوجتك، والتفريج عن مكنونات صدرك ستساعدك في التعامل مع حزنك بطريقة أفضل.

ثم دسّ الرجل يده في جيب معطفه ليقوم بإخراج الكارت التعريفي الخاص به ويعطيه له قائلًا:

- حسنًا، هذا هو عنواني ورقم الهاتف، فلتأتِ لزيارتي وقتما تريد.

أخذ الزوج الكارت التعريفي من الرجل ونظر به لثوانٍ صامتة دون حديث، فاستأنف الرجل الحديث متبسمًا:

- أعتقد أننا لم نتعارف بشكل رسمي حتى الآن، ثم مد يده للزوج ليصافحه معرفًا نفسه إليه وهو يقول:

- الطبيب بريمان في خدمتك.

فتلاقت راحتا يديهما والرجل الآخر يجيبه قائلًا:

- تشرفت بمعرفتك حضرة الطبيب بريمان، معك بروفيسور هادسون.

****

" الطبيب بريمان، للأمراض النفسية والذُهانية"

- لقد انتهينا.

كانت تلك الكلمات الأولى التي تطرقت لأُذن بروفيسور هادسون بعد انتهائه من آخر جلسة له، فنظر إليه بريمان بوجهٍ مبتسم وهو يحدثه قائلًا:

- لا أعرف ما الذي سوف افتقده أكثر، تلك الجلسات أم الحديث معك!

- صدقني بروفيسور هادسون سوف أفتقد كثيرًا الحديث المشوق معك، ولكن ما زال لديك رقم هاتفي لتهاتفني وقتما تشاء.

فأجابه بروفيسور هادسون وهو يمزح:

- لا تقلق، فأنا أحفظه عن ظهر قلب.

- وما الذي تنوي فعله في حياتك العملية الآن؟

صمت بروفيسور هادسون لبرهة وهو يفكر، ثم عاد ليجيبه:

- أعتقد أنى سوف أعود لإكمال تأليف الكتاب الخاص بي.

- لماذا لا تعود إلى التدريس بجانب ذلك؟

اتضحت ملامح الارتباك على وجه بروفيسور هادسون بعد سماعه لسؤال الطبيب بريمان، فلاحظ الأخير ذلك، فعاد ليستأنف قائلًا:

- اعتذر لك، فأنت لست مضطر لاطلاعي على السبب، لقد غلبني فضولي ليس أكثر.

تفهم بروفيسور هادسون ما قاله الطبيب بريمان له فأجابه:

- لنقل إن عملي في التدريس قد انتهى بالعديد من المشاكل، والتي آلت بانتهائي من كوني مُحاضرًا.

فحدثه الطبيب بريمان مبتسمًا:

- هذا من سوء حظي، فقد كنت أرغب بشدة في حضور إحدى محاضراتك، فأنا على يقين أنك مُحاضر بارع.

ثم التفت نحو وِحدة الأدراج ليفتح أول أدراجها ويخرج الملف الخاص ببروفيسور هادسون، ثم التفت له فوجده قد نهض من مكانه ليرتدي المعطف استعدادًا للخروج، فنظر إليه وهو يبتسم وكأنه يجول في خاطره شيئًا ما، فسأله بروفيسور هادسون ممازحًا إياه:

- فيما تفكر؟

- لا شيء، ولكني يساورني دائمًا نفس التساؤل في كل مرة أراك فيها، فأنا أتعجب من بنيتك القوية التي لا تتناسب مع وظيفتك! والتي طالما تأخذ في الذهن الشكل النمطي لممتهني التدريس، فحينما علمت وظيفتك لأول مرة توقعت أن أشاهد شخصًا كبيرًا في السن يرتدي نظارة سميكة، ولكنك رجل يافع تمتلك كتلة عضلية تساوي ستة أشخاص مثلي، هل أنت متأكد أنك لا تعمل كحارس خاص أو مصارع أو شيء من هذا القبيل؟!

ضحك بروفيسور هادسون وهو يجيبه:

- ألم أقل لك إني سوف أفتقد كثيرًا حديثنا سويًا.

بادله الطبيب الضحك ثم تذكر سبب إتيانه بالملف الخاص به ليفتح أولى صفحات الملف، وينظر لها وهو يحدثه قائلًا:

- قبل أن أنسى، علي القيام بملء بعض البيانات الناقصة في الملف الخاص بك، إذا سمحت لي.

- تفضل.

- بالنسبة لمحل السكن، هل أكتب العنوان السابق الذي قابلتك به؟

- لا، كان هذا منزل والد زوجتي وقد غادرته بعد أن تُوفيت.

ثم بدأ يُملي على الطبيب بريمان عنوانه الجديد قائلًا:

- أنا الآن أسكن في "٣١ب" بجاده هولمن.

انتهى الطبيب بريمان من تدوين العنوان ليحدثه في أمرٍ أخير:

- حسنًا، متبقٍ لدي خانة الاسم الأول، ثم نظر نحوه ليحدثه ساخرًا:

- أتعلم؟ أنا بالفعل لا أعرف اسمك الأول حتى الآن.

فأجابه بروفيسور هادسون وهو يضحك قائلًا:

- هل تصدق أننا بعد كل هذا الوقت وما زلنا نتعامل بالرسميات؟

وضع بريمان القلم على بداية الخانة الفارغة وهو يسأله:

- حسنًا، وماذا علي أن أدعوك إذن يا صديقي؟

فابتسم بروفيسور هادسون له وهو يجيبه.

- أنا أُدعى ديفيد.

****

"أنا أُدعى ديفيد"

تحرك القس جوناس بهدوءٍ عابرًا الممر المؤدي للبهو قاصدًا غرفة الاعتراف، ثم أزاح ستار المدخل خاصته جانبًا ليدلف إلى الداخل ويجلس بتروٍ، ثم بدأ حديثه المُعتاد:

- أبانا الذي في السموات فليتقدس اسمك.

انتظر الأب جوناس سماع أي استجابة من الشخص الآخر إلا أنه لم يجد شيئًا، فهَمَّ بالحديث مجددًا.

- تفضل يا بني بالحديث، ما الذي يؤرقك؟

لم يجد القس جوناس أي استجابة مجددًا ليدنو بوجهه قليلًا نحو الخشب الرقيق المفرغ الذي يفصل بينهما، وهو ينظر بناظره للأسفل منصتًا أملًا في سماع صوت من بالناحية الأخرى، فوجد حينها صوت قِنّينة تُفتح، فزاد الأمر من فضوله ليدنو بأذنه أكثر ليسترق السمع، ليجد صوت شخص يتجرع شيئًا ما، لم يفهم القس جوناس ما يحدث إلا أنه قد أرجع رأسه قليلًا في خوف بعد أن سمع صوت قهقهه يتحول سريعًا إلى زمجرة غاضبة!

استاء القس جوناس للغاية مما يبدو أنه مزاح سخيف من أحد الاشخاص، فاقترب من الفاصل الخشبي وهو يتحدث بجدية:

- اسمع يا هذا، إن بيوت الرب ليست مكانًا للمزا...

اخترق الخشب الفاصل يد قوية قبضت على رقبة القس جوناس بقوة جعلته يفتح فاه هلعًا وهو يبحث عن أي هواء يعبر قصبته الهوائية المُطبق عليها، حينها شعر الجرول بقبضة المخلوق في يده وهو يحاول التملص منها دون جدوى، ولكن إذ به يجد براثن "اليورجن" تنهش في قبضة يده بشدة جعلته غير قادر على تحمل المزيد من الألم ليترك في النهاية رقبته، خرج اليورجن عبر ستار الباب الآخر وهو يترنح من الضعف، ولم تتحمله قدماه ليسقط على الأرض، فإذا بستار الباب الآخر يُطاح في الهواء ليخرج الجرول مزمجرًا وهو يتوعد اليورجن بعينيه جزاء ما فعله به، حاول اليورجن الزحف للأمام هربًا منه بينما كان يلتفت للخلف نحو الجرول.

وصل الجرول إلى اليورجن المُلقى على الأرض وقد أمسك به من قدمه ليسحبه نحوه، نظر اليورجن نحو الجرول الذي دَنا بوجهه منه وهو يزمجر في غضب، ليراقب يد الجرول وهي ترتفع لأعلى لتنزل براثنه الحادة بكل ما أوتيت من قوة وعزم داخل صدره لتخترقه في بطءٍ، حينها شاهد الجرول

اليورجن وهو يصرخ من الألم جراء يده المندفعة بإصرار داخل صدره حتى عثرت على مرادها، شعر الجرول بقلب المخلوق في يده فاعتصره حينها كالفاكهة الذابلة داخل قبضته ليتوقف المخلوق التعس عن الحركة كليًا، ويخبو ضوء الحياة من عينيه للأبد.

أخرج الجرول ذراعه الدامي من صدر اليورجن المهشم ليتأمل براثنه والتي تساقطت بضع قطرات لزجة منها، وفجأة اقتحم البهو أربعة من مخلوقات الجحيم تبدو مشوهة كمسوخ بشر، فأدرك الجرول حينها أنه قد جاء متأخرًا فيبدو أن هذا المخلوق قد فتح البوابة باكرًا قبل إتيانه إليه، ولكن لا يهم فهو عائد إلى عالمه بعد لحظات، ولكن قبل ذلك سوف يحاول أن يعيد أكبر كم من هؤلاء المسوخ معه إلى الجحيم حيث ينتمون.

بدأ الأربعة بمحاولة الالتفاف حول الجرول ليحيطوه من كل جانب، بينما تراجع الأخير خطوات قليلة للخلف وهو يزأر نحوهم في محاولة منه لترهيبهم، ولكنهم نجحوا في الإحاطة به في نهاية الأمر، كان صوتهم كأنهم يصيحون بلغة غير مفهومة له وكأنهم يخططون لحركتهم القادمة، فقرر الجرول المباغتة بالهجوم على أحدهم ليثب نحوه و يجثو فوقه ويقبض بأسنانه في قصبته الهوائية ليثب أحدٌ آخر منهم ويغرز أسنانه الحادة في ظهر

الجرول، مما دفعه للانتفاض في ألمٍ محاولًا إزاحه هذا المسخ من فوق ظهره لتأتيه ضربة قوية بأداةٍ ما كان يمسكها أحد المسوخ، فتطيح به في الأرض ليشعر بدوارٍ شديد ولكنه تمالك نفسه وقرر الهجوم مجددًا على أحدهم ونهشه بأنيابه، ولكن تكالب البقية منهم عليه فبدأت قواه تخور جراء الضربات المتتالية التي انهال بها هؤلاء المسوخ عليه حتى خارت قواه، وبدأ بالشعور بأنه سيُغشى عليه وأن نهايته قد شارفت.

الفصل الثامن

"بروفيسور ديفيد هادسون"

بدأ ديفيد في استعادة وعيه مرة أخرى، كان يشعر بثقل في جفنيه ودوار برأسه أفقده القدرة على التركيز، حاول استعاده الأحداث الأخيرة التي حدثت له قبل أن يفقد وعيه ولكن باءت محاولاته بالفشل، كان غير قادر على تمييز أو تبين أي شيءٍ من حوله، ولكن استرقت أذناه إلى حديث شخصين قريبين من مكانه.

لم يستطع تبين كنية حديثهما من الطنين في رأسه، أرجع رأسه للخلف وهو يتأوه من شعور الألم المبرح الذي يعتري رأسه، مرت دقائق معدودة على استفاقته وهو يحاول لم شتات نفسه، ليبدأ في إدراك ما يحيق به:

- لقد بدأ يفيق، هل أنت على يقين مما تفعله؟

- لا تقلق.

انتبه ديفيد لتلك الكلمات فبدأ يفتح عينيه بصعوبة، كانت الرؤية ضبابية في بادئ الأمر، ولكن ما لبثت وأن عادت للوضوح تدريجيًا.

كان ديفيد متواجد في غرفة مظلمة لا يؤنس ظلامها سوى لمبة واحدة مثبتة في السقف، كان جالسًا على مقعد حديدي وأمامه طاولة معدنية موضوع فوقها ملف ورقي وجهاز تشغيل شرائط صوتية، ويستقر في الجانب الآخر للطاولة مقعدان خشبيان يقعان في مواجهته، حاول النهوض من مكانه لكنه وجد يديه مكبلتين بأصفادٍ متصلة بالطاولة الحديدية من أمامه، حاول التملص منها بقوة، ولكن لم يسعفه جسده المنهك على القيام بذلك.

- مرحبًا بروفيسور هادسون.

حاول ديفيد الالتفاف برأسه نحو موضع صاحب الصوت ليجد شخصين قد ظهرا من خلفه ليتقدما بهدوءٍ ويقفا بجانبه، كان أحدهما يمتلك ملامح وجه هادئة حليق الذقن يرتدي نظارة طبية وشعره ذهبي اللون مصفف جانبًا، لا تدري ما الذي يميزه أكثر، هل هي الابتسامة البسيطة التي لم تفارق وجهه، أم الحُلة الأنيقة التي تُزين جسده النحيل، وعلى النقيض كان الشخص الآخر أصلع الرأس غليظ الملامح تشعر بغضبٍ يبيت في عينيه المرهقتين، بينما تسكن الهالات السوداء بأسفلهما، يمتلك بنيانًا عتيًا ويرتدي حُلة عفا عليها الزمن تقبع تحت معطف جلدي أسود اللون، كان يزين حزام سرواله جراب جلدي يُغلف سلاح ناري ذو ساقية سداسية.

تحدث الشخص النحيف لديفيد وهو يشير براحة يده نحو صدره قائلًا:

- أُعرفك بنفسي، أنا "الطبيب أدموند" طبيب الأمراض النفسية والذُهانية.

ثم أشار بيده نحو الشخص الآخر الذي كان ينظر لديفيد شزرًا وهو عاقد يديه أمام صدره قائلًا:

- وهذا هو "المفتش بيرنز" رئيس قسم الشرطة المحلية ببلدة "إيبينج".

نظر إليهما ديفيد بتمعنٍ للحظات، ثم حدثهما بتعجب:

- ما الذي جاء بي إلى هنا؟

فأجابه المفتش بيرنز:

- أنت هنا بسبب ما اقترفته، لقد قتلت البارحة قسًا يُدعى "جوناس".

ثم تحدث المفتش بيرنز بصوتٍ أجش ليستأنف حديثه:

- هو واثنين ممن حاولوا امساكك أيها المعتوه.

فصاح به ديفيد:

- أيها الغافلان، أنتما لا تدريان ما يحدث في عالمكما.

حينها تحدث الطبيب أدموند لديفيد ليجيبه:

- بل أنت من لا تدري ما يحدث في عالمك، عالمك الخاص!

ثم صمت لبرهة قبل أن يأخذ نفسًا عميقًا ليردف:

- دعني أقص عليك أحداث يوم الأربعاء الماضي، أي قبل يومين من الآن.

الفصل التاسع"

ما حدث قبل يومين من وفاة القس جوناس"

تحركت الممرضة المساعدة في عجلةٍ من أمرها داخل ممرات الدور الثاني الخاص بالقسم النفسي بمصحة "لوكثنبرج للأمراض النفسية والذُهانية" كانت تتأنى في خطواتها كلما مرت بجانب غرفة للمرضى لتمرر نظراتها داخل الغرفة تلو الأخرى بحثًا عن ضالتها، حتى وقعت عيناها على نائب مدير المشفى يتفحص إحدى الحالات السريرية ويدون ملاحظاته على مدونة المتابعة الخاصة بالحالة.

- الطبيب أدموند.

قالتها الممرضة بتأدبٍ ليلتفت جانبًا لها وهو ما زال يستأنف عمله، فاستأنفت حديثها: يوجد شخص يريد أن يقابلك، يقول أنه قد جاء بخصوص الطبيب بريمان.

رفع الطبيب أدموند جبهته من المدونة التي يمسكها لينظر إليها في برودٍ وهو يسألها:

- وأين هو الآن؟

فأجابته على استحياء:

- إنه ينتظر في مكتبك، ثم عادت لتسأله:

- هل أطلب منه المجيء في وقتٍ لاحق؟

تحركت يد الطبيب أدموند سريعًا في التدوين على أوراق المدونة ليعطيها للممرضة، ويجيبها قبل أن يتحرك قائلًا:

- لا بأس، لقد انتهيت على أي حال.

فتح الطبيب أدموند باب المكتب ليجد القس جوناس جالسًا بانتظاره على أحد المقعدين أمام مكتبه، فتقدم ليمد يده وهو يصافحه قائلًا:

- صباح الخير.

فبادله القس جوناس التعارف وجلس الطبيب أدموند خلف مكتبه وهو يسأله:

- كيف أستطيع خدمتك يا أبتاه؟

ابتسم القس جوناس وهو يجيبه:

- في البداية أحب أن أعرفك بنفسي، أنا "الأب جوناس" لقد جئت إليك قاصدًا مساعدتك.

فأجابه الطبيب أدموند:

- إذا كان الأمر في استطاعتي فلن أتردد في مساعدتك.

- لقد أتيتك بخصوص صديق قديم لك يُدعى "الطبيب بريمان".

فأجابه الطبيب أدموند مستنكرًا:

- سامحني فيما سأقوله يا أبتاه، ولكنى أنأى بنفسي عن أن أدعوه بصديقٍ لي، لقد كانت تجمعنا زمالة العمل وليس أكثر من ذلك.

تغاضى القس جوناس عن حدة حديث الطبيب أدموند له ليستأنف حديثه:

- إن الطبيب بريمان قد جاء إلى بلدتي منذ عامين ليفتتح عيادته الخاصة لدينا، وقد جئت إليك كي...

قاطع الطبيب أدموند حديثه على الفور:

- عما تتحدث يا أبتاه؟! إن الطبيب بريمان تم إيقافه عن العمل ومنعه من ممارسه المهنة بتاتًا.

توقفت الكلمات في حلق القس جوناس فعجز عن إكمال حديثه، وقد اعتلت وجهه ملامح القلق الشديد، فحدثه الطبيب أدموند حينها:

- أعتذر لك عن مقاطعتك يا أبتاه، فلتكمل ما كنت تنوي قوله.

فأجابه القس جوناس بنبرة خائبة الظن:

- أخشى يا بني أنك قد زدت من اشعال نار الشك الدفينة في داخلي، ولهذا فلتصغِ لي جيدًا فيما سوف أقوله: منذ عامين وفد بريمان إلى بلدتنا، وقد استأجر منزلًا ليستقطع منه جزءًا ليبدأ عمله في علاج المرضى لدينا، لا أنكر أني شعرت بنواياه الطيبة في البداية نحو أهل البلدة ورغبته في مساعدتهم، ولكن حينها طرأت أمور عدة زادت من ريبتي حتى أصبح الأمر لا يطيق عقلي احتماله، ولذلك قررت المجيء إليك طلبًا للمساعدة، وما حدث منذ

شهرين ماضيين أني كنت قد صادفت الطبيب بريمان بعد انتهاء عملي، وقد أتى إلي يومها شخصان للاعتراف بآثامهما وقد تسبب لي ما يضمران به في نفسهما بضيقٍ كبير في صدري، حينها اقترح بريمان على القيام بجلسه تنويم تريح ما في نفسي من أعباءٍ وهموم، ما زلت ألوم نفسي الواهنة على قبول هذا العرض الذي وافقت عليه حينها على مضض، وقد خشيت بعد ذلك بأن أكون قد بُحت له بأسرار تخص الرعية ولكنه طمأنني بأن شيئًا لم يحدث، وقد عقدت العزم بعد ذلك على عدم اقتراف تلك الفعلة مرة أخرى، وبعد حين وبمرور الأيام، بدأ الطبيب بريمان ينعزل عن الخروج للعالم الخارجي ليصُب تركيزه على عمله ومرضاه فحسب، ولكني فوجئت بعد ذلك حينما صادفني الحظ في ملاقاته مرةً أخرى بعد فترة ليست بالقليلة بأنه لم يعد مثلما كان، أو على الأقل مثلما كان اعتاد أن يدَّعي، لقد شعرت بأنه شخصًا آخر، شخصٌ لا يضمر للبشرية إلا كل سوء، شخصٌ حانقٌ على الآثمين لا يسع صدره أي غفرانٍ تجاههم، وحينها حدثني بأنه على وشك ارتكاب إثمًا عظيمًا ربما يحين يوم ويخبرني به، حتى حدث ما أخشاه.

تطلع الطبيب أدموند نحو القس بنظراتٍ مستفسرة منتظر أن يستأنف بقية حديثه، فما به إلا أن عاد ليقول: لقد فوجئت بعدها بأنه قد تم قتل الشخصين اللذين جاءاني سابقًا للاعتراف بطريقة وحشية.

فحدثه الطبيب أدموند بامتعاضٍ قائلًا:

- ثم ماذا؟! حتى الآن لا أجد أي علاقة للطبيب بريمان بالموضوع، الجريمة الوحيدة التي ارتكبها حتى الآن هي العودة لممارسة مهنته مرة أخرى دون ترخيص يسمح له بذلك.

- أنا أعلم يا بني أني لا أملك دليلًا ملموسًا يدينه، ولكن لدي احساسٌ قوي بأنني قد بُحت له بأسرارهما، وحين قابلت بريمان في المرة الأخيرة شعرت أنه يضمر الشر في نفسه، لقد كان يتفوه بأن هناك بعض الآثمين الذين لا يستحقون فرصه ثانية أو العيش بيننا ولو للحظه واحدة.

أطبق الطبيب أدموند راحتي يديه سويًا ليقاربهما أمام وجهه وهو ينظر للأمام في سكونٍ وكأنه يفكر في الأمر مليًا ثم بدأ بالحديث:

- على الرغم من أنه احتمال بعيد الترجيح إلا إن ما سوف أقوله ربما يقارب من احتمالية ما حدثتني به يا أبتاه.

ثم نظر إليه ليسأله:

- هل تحدث الطبيب بريمان عن عمله السابق؟ أو بالأحرى لماذا ترك مثل هذا العمل الهام ليبدأ عمل بسيط في بلدة نائية كبلدتكم؟

حاول القس جوناس استعاده ما قاله بريمان له حينها في ذهنه حينما سأله سابقًا عن سبب تركه لوظيفته ليجيبه:

- لقد وضع الكثير من الأسباب وقتها، أهمها استخدام الأطباء لأساليب بدائية قد عفا عليها الزمن في مداواة المرضى، وهو ما لم يستطع التعايش معه وأنه قرر بدء عمله الجديد ليقف في مواجهة المرض في بداية نشأته، وليس بعد تفشيه داخل العقل البشري.

- وهل صدقت ما حدثك به؟

- لم يكن لدي سبب حينها لكي أرميه بالكذب.

نهض الطبيب أدموند من مجلسه ليتحرك قبالة القس جوناس وهو يتحدث قائلًا:

- إن مصحة لوكشنبرج تُعتبر من أهم مؤسسات علاج الأمراض النفسية والذُهانية في إنجلترا كلها، وتخضع للمراقبة الدائمة من جميع قرنائها أملًا في

التعلم منها والحذو بحذوها، ناهيك عن اللجان الطبية التي تُشرف على المصحة طوال الوقت وتحرص على متابعه طرق العلاج الخاصة بالأطباء وحسن معاملة المرضى المقيمين بها.

ثم جلس على المقعد المواجه له وهو يردف:

- لقد كان للطبيب بريمان واقعة نجى منها من العقوبة الجنائية بشق الأنفس، ولكن تم تطبيق العقوبة الأدبية عليه ليتم فصله بعد ذلك عن العمل نهائيًا، ففي الفترة الأخيرة له بالمستشفى وقعت حادثة مثيرة لتورط شاب يُدعى "سام جريفن" وهو ابن أحد أشهر رجال عصابات لندن في جريمة قتل لصديقته وابنتيها، وقد استند محامي العصابات الشهير "دانيال راسل" في دفاعه إلى أن الجاني يعاني من مرضٍ نفسي أدى لفعلته هذه، وقد أوفدته المحكمة إلى المصحة من أجل التقييم النفسي، وحينها تم التأكيد على صحة سلامته النفسية والذهانية على يد الطبيب بريمان، وقد حدثني في أحد الأيام أن سام جريفن قد أكد له على أنه سوف يفلت من العقاب لا محالة، فهناك عشرات الأطباء الذين سيشهدون بعدم سلامته النفسية والذهانية، سواء بِشرائهم أو ترهيبهم، حينها حدثني بريمان ببريقٍ لمع في عينيه بأن

عاجلًا أو آجلًا سوف يخرج سام جريفن إلى الحياة حرٌ طليق مرة أخرى، وقد يكرر فعلته مرة أخرى وهذا ما لن يسمح بحدوثه على الإطلاق.

فسأله القس جوناس في فضول جلي:

- وما الذي حدث بعد ذلك؟

فأجابه الطبيب أدموند:

- لم تمر بضعة أيام على حديثنا آنف الذكر، إلا وأن تم قتل سام جريفن على يد أحد المرضى العقليين المعزولين في المصحة لخطورتهم الشديدة، لم يعرف أحد كيف استطاع الهرب من غرفته وكيف استطاع اقتحام غرفة الشاب ليقطعه إربًا أثناء نومه بآلةٍ حادة أودت بحياته، وللأسف تم إلقاء اللوم على الممرضة المقيمة يومها، ولكن كان لي ظني الخاص في الحادث فأخبرت لجنة التحقيق بما حدثني به الطبيب بريمان، واستندت أيضًا لكونه الطبيب المقيم في نفس ذات يوم حدوث الواقعة، وبرغم الشبهات التي كانت تحوم حوله إلا أنها لم تكن أدلة كافية لكي تدينه جنائيًا، فتم الاكتفاء بفصله عن العمل كعقوبة تأديبية لإهماله الإداري الجسيم، وبعد ذلك توارى

الطبيب بريمان عن خارطة العمل، وترك منزله في لندن ولم نسمع عنه شيئًا منذ ذلك الحين.

فحدثه القس جوناس قائلًا:

- إن ما حدثتني به للتو يؤكد شكوكي أكثر، هل من الممكن أن يكون قد قرر استكمال ما فعله سابقًا بالتصدي لمن يراهم خطرًا على المجتمع وتصفيتهم؟

- لا أستطيع أن أجزم بشيءٍ فيما يخص الطبيب بريمان، ففعلته الأخيرة جعلتني موقن بأني لا أعرف شخصيته الحقيقية على الإطلاق، ولكن ما يمكنني فعله الآن هو إبلاغ السلطات المسئولة عن ممارسته للمهنة دون ترخيص، وسوف يلقى العقاب لقاء ذلك حتمًا.

فحدثه القس جوناس قائلًا:

- أرجو أن تتمهل في قرارك هذا حتى أتمكن من التأكد من صحة نظريتي، ثم عاد ليردف:

- هلا أعطيتني الرقم الخاص بك لأهاتفك إن طرأ جديد؟

أخرج الطبيب أدموند أحد كروته التعريفية وهو يعطيه له قائلًا:

- ما الذي تنوي الإقدام على فعله يا أبتاه؟

لم يبدُ على القس جوناس أنه سمع أيًا مما قاله الطبيب أدموند له وهو ينهض من مجلسه متوجهًا صوب الباب، فقد بدا عليه الشرود في التفكير فعاد الطبيب أدموند ليحدثه قائلًا:

- أنا لا أعرف فيما تفكر يا أبتاه، ولكن أيًا ما كان تنوي فعله فأرجو ألا تتورط في شيء تندم عليه.

التفت حينها القس جوناس برأسه قليلًا نحوه وهو يمسك مقبض الباب قائلًا:

- لا تقلق يا بني، فأنا لن أسعى سوى لمعرفة الحقيقة.

الفصل العاشر

"السعي وراء الحقيقة"

طوال طريق العودة بالقطار لم يشغل ذهن القس جوناس سوى أمر واحد، تلك الجريمتان الذي يشعر في داخله بأن الطبيب بريمان هو من ورائهما، كان ضميره حينها يؤرقه بشدة فشعوره بالمسئولية تجاه الأمر جعله ييقن أمرًا واحدًا وهو أن عليه أن يتأكد من صحة شكوكه أو خطأها ليهنأ باله ويرتاح ضميره، هل كان يُصادق رجلًا اُتهم ظلمًا سابقًا أم مجرم يقتصُ العدالة بقوانينه الخاصة، كان عليه أن يبُت في ذلك الأمر في أقرب وقت ممكن.

الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل، وقف القس جوناس بجوار منزل بريمان يراقب المكان في هدوءٍ، لم يستطع أن يتذكر عدد المرات التي رفع فيها نظره للأعلى صوب نافذة غرفة النوم المعتمة بالمنزل، لقد خلد الطبيب بريمان للنوم منذ ما يقرب من ساعتين فلا مناص من ضرورة البدء في التحرك الآن، كان قد التف بالفعل حول المنزل منذ قليل عدة مرات، ليجد المكان الأنسب للاقتحام حتى عثر عليه، كانت نافذة صغيرة لأحد الغرف بالدور الأرضي، مجرد نافذة مقفلة بخطاف غلق واهن صغير لن يستطيع الصمود أمام محاولة اقتلاعه بالعتلة الحديدية التي كان يحوزها.

اعتلى القس جوناس النافذة ليطأ بأولى قدميه داخل الغرفة ليخرج كشافًا يدويًا في صمتٍ وهو يتحسس خطاه على هدى في الأجواء المعتمة للمنزل حتى وصل أخيرًا إلى غرفة الكشف، أمسك بمقبض الباب ليفتحه في تروٍ وهو يبحث عن شيءٍ واحد، وِحدة الأدراج.

تحرك نحوها فور وقوع نظره عليها أملًا في أن تستسلم أقفال أدراجها أمام عتلته المنتصرة حتى الآن، تهللت أساريره مع صوت فتح أول درج لها ليبدأ في تفحص ملفاته باحثًا بنظره عن أية اسماء قد تبدو مألوفة له، ولكن دون جدوى، فتح الدرج الثاني ليجد صندوقًا صغيرًا ملصق عليه كلمة

"تسجيلات" وموضوع به عدة شرائط تسجيل صغيرة الحجم وعلى غلاف كل منها اسم أحد المرضى، حمل الصندوق في هدوءٍ ليضعه على المكتب وهو يتفحصهم في صمت حتى وقعت عيناه على اسم يعرفه جيدًا، التقط القس جوناس الشريط الذي يحمل اسمه وهو يتوجه نحو جهاز التسجيل الموجود فوق المنضدة الصغيرة بجوار المضجع المخملي وعقله يملأه العديد من التساؤلات عما يحمله هذا التسجيل، فجلس عليه ليضع الشريط داخل التسجيل ويضغط بيد مترددة على زر التشغيل ليبدأ بسماع ما يحتويه.

- نحن في الجلسة الأولى للقس جوناس...

ضغط القس جوناس بإصبعه على زر التقديم لثوانٍ ثم أبعد اصبعه عنه ليعمل مجددًا:

- حاول أن تتخيل نفسك في مكانٍ تشعر...

ضغط مرة أخرى لفترة أطول قليلاً ثم تركه ليكمل:

- أريدك أن تسترخي وأنت...

تنهد القس جوناس وهو يضغط مرة أخرى على زر التشغيل لفترة ليست بالقليلة ليتركه مجددًا:

- حاولت اقناع الفتاة بالعدول عما تنويه، ولكن باءت محاولاتي بالفشل فقد كانت عاقدة العزم على فعلتها...

توقفت يد القس جوناس في الهواء وهو يسترق لما يسمعه وقد تجمدت الدماء في عروقه من هول ما أدركه، لقد حدث ما كان يخشاه، لقد اعترف بما كان يحتويه صدره من أسرار.

ظل القس جوناس يستمع للتسجيل بقلبٍ يُثقله الذنب، حزين للبوح بما ليس من حقه الإفصاح عنه ناقمًا على خداع الطبيب بريمان له.

- سامحني يا أبتاه فقد أذنبت.

التفت القس جوناس بغتة تجاه الصوت القادم من خلفهِ لكي تُضاء بعدها الغرفة، كان الطبيب بريمان يقف بجانب باب الغرفة ويده على مفتاح الإضاءة، فنهض القس جوناس من مجلسه وهو ينظر إليه بعينين تحارب سطوع الضوء الذي غمر المكان ليخطو الطبيب بريمان نحوه في هدوء، والابتسامة ترتسم على وجهه وهو يقول:

- يبدو أنك سوف تستمع لاعترافي في النهاية.

فأجابه القس جوناس غاضبًا:

- أنا أعرف كل شيء بالفعل عن ماضيك، وعلى الرغم من مقتي الشديد لك إلا أن الرب أمرني بالاستماع لك لعلي أستطيع إنقاذ روحك البائسة.

قهقهه الطبيب بريمان في سخرية من حديث القس جوناس له ثم عاد قائلًا:

- لقد أتيت إلى بلدتكم الصغيرة أملًا في بدء حياة جديده بها لأمارس عملي الذي أحبه بعيدًا عن أعين من سلبوا منى حق ممارسته، لم أكن أظن أن مسعاي في الحياة سوف يتغير، ولكن يبدو أنه كان مقدرًا لي مسعى مُغاير كليًا، فاليوم الذي زرتني للمرة الأولى في عيادتي كانت نواياي لا تتعدى مساعدتك وإراحة عقلك المنشغل ونفسك المُثقلة، ولكني اعترف حينها أنه كان يعتريني الفضول الشديد لمعرفه الآثام التي تجعل قس مثلك مُثقل البال فور إدراكها، حينها حدثتني عن اثنين من الآثمين لم أستطع نسيان ما أخبرتني به عنهما، سيلفيا تلك العاهرة التي تسبب عملها بإصابتها بمرض الإيدز، كانت ما تزال في مراحله الأولى حين اكتشفت اصابتها به، حينها شعرت بالحنق تجاه العالم وتجاه ما فعله الرجال بها وقد أحست بالظلم وبضرورة الانتقام من كل الرجال الداعرة بنقل هذا المرض اللعين لهم كلما أتيح لها الفرصة، لتقضي على أكبر كم من الرجال قبل أن يقضي المرض عليها، محاولةً الانتقاء من الرجال من هو غريب عن البلدة راحلًا بعيدًا عنها ليحمل

علتها معه دون أن يُذاع لها سرًا، لقد جاءت لك لتعترف بما تفعله وتقسم على الاستمرار فيه، وقد منعك عملك عن الإفصاح بما تضمره تلك العاهرة للبشرية، والآثم الثاني هو "إينبار" المساعد الهندي للطبيب رودجر والذي كان يوصل ما يتحصل عليه الطبيب رودجر من تجارته في أعضاء المرضى المحتضرين والذين انقطعت صلتهم بزويهم في العالم الخارجي، والذين كانوا يتوفون كل فترة نتيجة فعلته دون أن يلحظ أحد السبب أو حتى يهتم بمعرفته، فتكسوهم أتربة القبور أو يُحرقون دون أي دليل على الفعلة الشنيعة التي أودت بحياتهم، ليستمر في فعلته والإفلات بها، كان يمارس عمله في غفلة من البقية بمساعده إينبار، وعلى الرغم من عدول إينبار عن تلك الفعلة في النهاية إلا أن جشع الطبيب رودجر كان أكبر من أن يستطيع إيقافه، لم تستطع إقناع إينبار بفعل الصواب والاعتراف على الطبيب لكونه خائف على ابنائه إن حدث له مكروه نتيجة محاولة إدانته للطبيب، لتصبح في النهاية يداك ولسانك مغلولَيْن عن التصرف.

فحدثه القس جوناس مستنكرًا:

- ولهذا كان عليك التصرف لتحمي البشرية من شرهما؟ كما اقترفت مع سام جريفن الذي أطلقت عليه قاتلك المجنون؟

فحدثه بريمان بكلمات واثقة:

- إن قتل سام كان قتل عبثيًا بسلاح غير محكوم، ولكن قتلي لهؤلاء كان قتل ممنهجًا بسلاحٍ كنت أعرف كيف ومتى استخدمه، ثم أردف قائلًا: سلاحي تلك المرة كان بروفيسور هادسون، شخص مريض بالفصام* يعيش في عالم منفصل عن الواقع، كل ما كان علي فعله هو وضع هذين الشخصين في مسرحية خيالية نسجتها داخل عقله المريض بذكاء ليقوم هو بدوره الذي صممته له.

فصاح به القس جوناس حينها:

- كيف تجرؤ على تولي زمام الأمور بيدك، كان يمكنك بعد أن استدرجتني للبوح بما أعرفه أن تلجأ للشرطة لتوقفهما بدلًا من فعلتك الشيطانية هذه.

فأجابه بريمان معللًا:

---

*خلافا للفكرة الشائعة، فليس مرض الفصام (psychosis check) هو انفصامًا في الشخصية، حيث إن مرض الانفصام في الشخصية أو تعدد الشخصيات (personality disorder) هو مرض اخر يتشابه قليلًا في النطق لذلك يختلط على الكثير الأمر ولا يفرقون بينهم.

- قد تظل تلك العاهرة تؤذي العشرات، بل المئات قبل أن تستطيع السلطات الوصول لأدلة تدينها، كذلك سيتمكن الطبيب رودجر من الإفلات بفعلته بمساندة عصابات تجارة الأعضاء له، فهو أثمن من أن يفقدوه، هذا إن استطاعت الشرطة إثبات شيء عليه من الأصل، ناهيك عن أن إخباري للشرطة بكيفية معرفتي بأي من تلك الأمور سوف يفضح أمري ويوقف فرصتي في إنقاذ البشرية من هؤلاء الوحوش ومن يليهم.

فسأله القس جوناس مستنكرًا:

- هل تعني أن هناك آخرون تنوي التخلص منهم؟

فأجابه بريمان:

- لقد حاولت إقناعك بإكمال جلسات التنويم لكي تبوح لي بالمزيد من هؤلاء الملاعين دون أن يفتضح أمري أمامك ولكنك أبيت ذلك، ولكن شاءت الأقدار أن تلقي أمامي بفكرة الكشف المجاني، والذي سوف يجعلني قادرًا على الغوص في أعماق عقول المرضى لمعرفه أسوأ أفعالهم.

ثم تحرك في عجالةٍ صوب وِحدة الأدراج لينحني ويفتح الدرج الأخير بها ويمسك بحفنة من الملفات وهو يقلب بها في عشوائية واضحة ليفتح أحدها وهو يحدث القس جوناس قائلًا:

- إليك هذا، فتاة صغيرة لم تتجاوز الستة أعوام تُدعى "الينوي داوسن" حينما تدبر إلى النوم هل تعرف من الوحش الذي ينتظرها في الظلام؟ إنه عمها الذي لا يستطيع منع نفسه من شغفه المريض بملامستها، ثم أطاح بالملف في عصبية واضحة ليفتح آخر وهو يستأنف: هناك وحشٌ يحصد أرواح المعذبين في الأرض، هل تريد أن تعرف من هو؟ إنه "سير ألبرت" من عائلة "سبيلجرم" أثرى عائلة في البلدة كلها، إنه رجلًا يحصل على نشوته المريضة عبر إزهاق الروح البشرية دون أدنى شعور بالندم، فقرر السعي في متعته الخاصة لصيد الفقراء تعساء الحظ، الذين يتمكن من استدراجهم وإلقائهم في الغابة ليستمتع بمطاردتهم قبل ازهاق أرواحهم.

ثم نظر إلى القس جوناس ليردف:

- ما زال لدى المزيد من الحالات، ما زال لدى الكثير لأحدث به التغيير، ما زال لدى المزيد من الوحوش البشرية لأبيدها.

فسأله القس جوناس مستنكرًا:

- وهل هذا مبرر كافٍ لتصنع وحشًا آخر؟

فأجابه الطبيب بريمان بخبث:

- أحيانًا يتطلب القضاء على وحش وحشٌ آخر.

- وما ذنب هذا المسكين الذي احتجزته داخل أوهام عقله؟

فأجابه الطبيب بريمان:

- لقد نبذه العالم الخارجي بالفعل وأنقذته أنا من كبوته، جعلت منه بطلًا مقتصًا للعدالة، أعطيت لحياته معنى مجددًا، لقد أتى لي وهو فاقدًا لزوجته ووظيفته وحياته، لقد أتى لي شخص بلا حياة فأعدت إحيائه مرةً أخرى بهيئةٍ وغاية جديدة.

- وماذا بعد؟ ما الذي سيحدث حينما تنتهي من خطتك؟

- سوف أزور بلدان أخرى غيرها حتى أستأنف مسعاي بمساعدة وحشي الخاص.

- لم أكن أعلم أنك بهذا الجنون.

- أنت لم تستوعب الأمر بعد أليس كذلك؟ ثم استأنف حديثه بأسلوب إلقاء بطولي ليردف: لقد وضع الرب في دربي "سام" لتخليص البشرية منه وانجو بفعلتي مستخدمًا سلاحًا متهالك، وبعد ذلك ارتحلت إلى هنا، وكشف لي الرب مخططات أشر البشر وألقى أمامي ببروفيسور هادسون، سلاحٌ قويٌ مفكك، كل ما كان عليَ هو إعادة تركيبه وتوجيهه حيثما أشاء.

فصاح به القس جوناس غاضبًا:

- لا ترتدي عباءة الدين وتضع الرب مبررًا لأفعالك الدنيئة، هل تحسب أنك في حملة مقدسة لخلاص البشرية أيها المعتوه؟

فأجابه الطبيب بريمان في ثقة:

- أجل إنها حملة مقدسة بالنسبة لي ولن يردعني عنها أحد، حتى أنت.

اعترى وجه القس جوناس القلق بعد الجملة الأخيرة التي سمعها، فعجز عن الحديث ليستأنف الطبيب بريمان ما كان يقول:

- لقد اعترفت لك بآثامي يا أبتاه، ولكن يأتي السؤال هنا؟ هل ستخون خصوصية اعترافي لك مثلما خنت من سبقوني؟

فتحدث القس جوناس حينها قائلًا:

- لقد عاهدت الرب ألا أخون ثقة أحد من رعاياه، لقد خدعتني حينها لأقع في شباك فخك، فليغفر لك الرب ما اقترفته وما أنت مقدم على اقترافه.

فأجابه الطبيب بريمان بنبرة متوعدة:

- أتمنى أن تحافظ على عهدك، وإلا ستصبح من الآثمين، وأنت تعرف ماذا يحدث للآثمين ومن يزورهم.

أطبق الصمت على المكان بعد جملة الطبيب بريمان الأخيرة، ليسرع القس جوناس في التحرك للخروج من الغرفة مارًا بجواره دون أن يتحدث إليه ليخرج من باب المنزل وهو يشعر بأنه لا يأمن على حياته لدقيقة أخرى.

الفصل الحادي عشر

"استكمال التحقيق"

كفّ الطبيب أدموند عن سرد ما حدث في الماضي، ليجلس على أحد مقعدي الطاولة في مواجهة ديفيد، ثم استأنف الحديث قائلًا:

- وحين عاد الأب جوناس يومها إلى منزله هاتفني وحدثني بكل شيء وأنه ينوي مغادرة البلدة خوفًا على حياته مما يضمر الطبيب بريمان من نوايا تجاهه، حينها أبلغته بأن يستمر في ممارسة حياته الرتيبة حتى لا يشك بريمان في أمره، على الأقل ليوم أو يومين حتى أستطيع المجيء إلى هنا وترتيب الأمر مع الشرطة للإيقاع بالطبيب بريمان.

حينها تحدث المفتش بيرنز لديفيد قائلًا:

- ولكن يبدو أن الطبيب بريمان لم يكن ليغامر بافتضاح خطته، وقرر الإسراع في إنهاء حياة الأب جوناس بوضعه هدفًا لك وإرسالك لكي تنهي المهمة.

فنظر الطبيب أدموند تجاه ديفيد قائلًا في أسى:

- لقد حان وقت إخبارك بالحقيقة يا ديفيد وإفاقتك من غفلة أوهامك، وهذا شيء كان من المفترض فعله كأول خطوة في علاج مرضك، لولا أن وقعت في يد من استغلك أشر استغلال.

رمقه ديفيد بنظرات تملؤها الشك لثوانٍ ثم ما لبس وأن عاد قائلًا:

- مهلًا، إني أعرف من أنت، أنت الطبيب المتواجد بالصورة الفوتوغرافية المعلقة على حائط عيادة الطبيب بريمان، أنا لا أصدق كلمة مما حدثتني به.

أقر الطبيب أدموند مَزعم ديفيد بظهور ابتسامه بسيطة على وجهه، ثم توجه بنظره للمفتش بيرنز وهو يحدثه:

- لقد حان الوقت ليستمع بروفيسور هادسون إلى اعترافات الشاهدة على حادثه قتل الفتاة التي تُدعى سيلفيا.

- لقد قرأت بالفعل أقوال الطفلة الصغيرة للصحافة.

ضحك المفتش بيرنز مستهزئًا بما يثرثر به ديفيد ليجيبه وهو يفتح جهاز التسجيل الصوتي:

- لقد حاولنا احتواء الواقعة على قدر المستطاع ومنع وصول أي أدلة للصحافة كي لا تثير الفزع والخوف في قلوب العامة ويثور الرأي العام، ولكنهم تمكنوا من الوصول لفتاة صغيرة في المبنى المقابل لمنزل المجني عليها وكانت قد أبصرتك وقت مغادرتك، وقتها لم تأخذ الصحافة بإدلائات الشاهدة الصغيرة على نحو الجدية واعتبرته مجرد لغو طفلة صغيرة، بينما بحثنا نحن عن الشاهدة الحقيقية على الواقعة، حتى وجدناها.

فتح المفتش بيرنز ملف ورقي مكتنز موضوع على الطاولة من أمامه، كُتب عليه بالحبر "ملف جريمة قتل رقم #٢٤"، ليُخرج منه شريطًا موضوعًا عليه ملصق كُتب عليه "أقوال الشاهد" ليضعه في جهاز التسجيل بينما بدأ الطبيب أدموند بالحديث:

- لقد تمكن المفتش بيرنز وفريق البحث خاصته من الوصول إلى شريكه المجني عليها في السكن والتي كانت موجودة في المنزل إبان الحادث، وقد

هربت بعد ذلك خوفًا على حياتها حتى استطاعوا العثور عليها، وقد أدلت تسجيليًا بما رأته وقتها.

ضغط المفتش بيرنز على زر التشغيل ليستمع الجميع إلى ما يحتويه:

صوت محقق:

- تسجيل الجلسة رقم #١ لأقوال شاهدة العيان على جريمة قتل المدعوة "سيلفيا بيكرسن"، الرجاء ذكر اسمك وعمرك وطبيعة عملك.

صوت مرتبك للشاهدة:

- اندريا هارت، ٢٤ عامًا، أعمل نادلة بحانة "تشيلي ووك" بالجانب الغربي من المنطقة.

صوت المحقق:

- ما العلاقة التي تربطك بالقتيلة؟

صوت الشاهدة:

- كنت أتشارك معها في المسكن.

صوت المحقق:

- فلتقصي علي ما تعرفينه عن الواقعة.

صوت متوتر للشاهدة:

- في اليوم السابق لوفاة سيلفيا عدت متأخرًا من عملي منهكة لأرتمي فوق فراشي وأغط في نومٍ عميق، ولكن حين عادت سيلفيا إلى المنزل أيقظتني من نومي لتحدثني في أمرٍ ما، فقد طلبت مني المبيت في الغد خارج المنزل حيث أنها سوف تستقبل أحد زبائنها الهامين في المنزل في وقت متأخر من الليل وتريد الاختلاء به وحدها، حينها رفضت واحتد النقاش بيننا لكوني قد اتفقت سالفًا منذ أن تشاركنا السكن على عدم استضافه أحد من زبائنها في المنزل.

صوت المحقق:

- هل كنت تعرفين طبيعة عمل القتيلة؟

صوت الشاهدة:

- كنت أعرف، ولكن لم يكن يعنيني ما تفعله في عملها طالما يظل شأنها الخاص وليس لي علاقة به.

صوت المحقق:

- وما الذي يجعلك تتشاركين مع بائعة هوى في سكنٍ واحد؟

صوت الشاهدة:

- ليس من السهل العثور على سكن منفرد لغلاء الإيجار، ولهذا عرضت علي صاحبة المنزل مناصفة الإيجار مع فتاة أخرى، كان منزل ليس بالكبير ذو غرفتين فقط ولكن لكل منا غرفة تخصها، وحدثتني أيضًا أن الفتاة الأخرى لا تتواجد معظم الوقت في المنزل وكذلك كنت أنا، فلم يكن لدي خيار سوى أن وافقت على مضض أملًا في ألا نرى بعضنا البعض كثيرًا.

صوت المحقق:

- حسنًا، فلتستأنفي ما كنتِ تقولين سالفًا.

صوت الشاهدة:

- بعد أن رفضت ما طلبته مني سيلفيا حينها، قررت أن تُقدم لي عرضًا لم أستطع رفضه، لقد عرضت علي أن تعفيني من مبلغ إيجار السكن في الشهر القادم على أن تتحمله هي في حال موافقتي على طلبها، وكان هذا عرضٌ سخيًا يصعب على رفضه خاصة مقارنة بالمال الزهيد الذي يتبقى لي من أجر العمل بعد دفع إيجار المنزل.

صوت المحقق:

- وماذا حدث بعد ذلك؟

صوت الشاهدة:

- وفي اليوم التالي قررت التأخر قليلًا عن موعد رحيلي لأتوجه مباشرة بعد ذلك لاستئجار غرفة في نزل بمجاورة ليست بالبعيدة عنا، فقد بدت لي فكرة صرف إيجار يوم لغرفة بدل من دفع إيجار شهر كامل للسكن فرصة رابحة، ولكن كان قد مضى وقت طويل منذ أن مررت من تلك المجاورة، فهي ليست في طريق ذهابي أو إيابي للعمل وربما كان هذا سبب عدم معرفتي بأن النزل قد تم إغلاقه منذ فترة لوفاة صاحبه وبيعه بالمزاد العلني لشخص قرر تغيير النشاط وإغلاقه حتى حين، ثم تمهلت لحظه لتستأنف قائلة: كان الوقت قد تأخر بالفعل وأقرب نزل آخر يتواجد في مدينة "ميرلات" ولن يسعفني الوقت أو المال للذهاب إلى هناك، فاصطحبت حظي العسر معي لأعود إلى سيلفيا خائبة الرجاء، كنت آمَل ألا يكون ضيفها الغامض قد جاء بالفعل وهذا ما قد كان، حينها عنفتني سيلفيا لإخلافي عن تنفيذ اتفاقنا وأثناء محاولتي لتوضيح ما حدث فوجئنا بزائرها يقف أمام باب المنزل، حينها حدثتني سيلفيا على عجالةٍ بأن الاتفاق بيننا ما زال قائمًا ولكن علي الذهاب

على الفور إلى غرفتي والتواري بداخلها دون أن أُشعر ضيفها بوجودي، وبالفعل دلفت إلى غرفتي وأقفلت بابها في سكينه دون ترك أثر يفضح تواجدي معهما بالمنزل.

صوت المحقق:

- وما الذي حدث بعد ذلك؟

صوت الشاهدة:

- استرقت السمع من خلف باب الغرفة إلى حديثهما المعسول حتى وصلا إلى غرفة نوم سيلفيا، حينها واربت باب غرفتي لجزء كافٍ يسمح لي بالتلصص عليهما، فقد كانت غرفتي في مواجهة غرفتها وإن استطعت الحفاظ على سكينتي فربما أستطيع رؤية ما يفعلانه في الغرفة دون افتضاح أمري.

صوت المحقق:

- وما الذي جعلك تغامرين بمثل تلك الفعلة؟ ففي حالة إدراك زائرها بوجود أحدًا آخر في المكان سيرحل على الفور وسوف تفسدين الاتفاق الذي كان بينكما وتخسرين على حد قولك الكثير من المال.

صوت الشاهدة:

- في الحقيقة لا أعرف السبب الحقيقي وراء فعلتي هذه، ربما كان الفضول لرؤية هذا الشخص الذي قررت سيلفيا احضاره للمنزل للمرة الأولى منذ أن عرفتها، ربما الفضول لكشف الغموض عن ماهية الأشخاص الأثرياء الذي يفضلون السرية أثناء ممارسة نزواتهم وأفعالهم الدنيئة، أو ربما شعور آثم بداخلي لأشبع فضولي الشبق بمشاهدة ما كانا على وشك فعله.

صوت المحقق:

- حسنًا، فلتستأنفي الحديث.

صوت الشاهدة وقد بدأت تزرف الدموع وهي تستأنف حديثها في حزن:

- تمنيت حينها ألا تغلق سيلفيا الباب ورائهما وهذا ما حدث بالفعل، ولكن ما ظننت أنه من حسن حظي ما لبس وأن بات كابوسًا يطاردني في منامي حتى اليوم.

صوت المحقق:

- رجاءً أن تتمالكي أعصابك قليلًا لنستطيع استكمال التحقيق.

صوت الشاهدة وهي ترشف منخارها:

- أسفة، كان باب غرفة سيلفيا مفتوحًا على مصرعه، يتيح لي أن أراقب ضيفها ملء العين، كان رجل ضخم الجثة يرتدي قميصًا تبلل على جسده أثر الأمطار الغزيرة بالخارج ليشف جسده ويظهر عضلاته المفتولة، ابتسمت وقتها وأنا تلتهمني الغيرة من الداخل لحصول سيلفيا على رجل مثله معها بينما كنت أسمع الاثنين وهما يتبادلان بعض الكلمات المعسولة، ولكن سرعان ما تبدل الحال حينما وجدت الرجل يهمهم بكلام غريب بدا لي غير منطقي للغاية، ثم أخرج من جيب سرواله قِنّينة ما ليتجرع ما بها حتى افرغها، ولم تمر لحظات على فعلته الأخيرة حتى أخذ يتلوى ويتخبط في الجدار من جانبه وهو يمزق ملابسه كالمجنون، ثم توقف عن الحركة لثوانٍ ناظرًا للأسفل ليجثو على الأرض وينظر إليها بنظراتٍ غاضبة وهو يزمجر كحيوان مسعور، وقد بدأ يتحرك على يديه وقدميه تجاهها قبل أن يقرر على غرة الوثب فوق فراشها والانقضاض عليها.

صوت المحقق مصحوبًا بصوت الشاهدة وهي تجهش بالبكاء:

- رجاءً يا سيدتي أن تتمالكي نفسك لنكمل التحقيق:

صوت الشاهدة باكية:

- استطاعت سيلفيا بشق الأنفس الإفلات من انقضاضه لتهرع خارج الغرفة وهي تصرخ، وقد قادتها قدماها لغرفة المطبخ لتدلف إليها وتوصد بابها بالمرصاد، حينها أوصدت بابي أنا الأخرى، ولم تمر ثوانٍ حتى سمعت صوت أنفاسه الغاضبة وهو يمرّ بجوار بابي وهو يتقدم الخطى على أربع فكتمت أنفاسي بيدي خشية إدراكه لوجودي، كان يزمجر متجهًا صوب الباب الذي تختبئ خلفه سيلفيا، دفعني الخوف على تلك المسكينة إلى مواربة الباب والنظر لمراقبة ما يفعله هذا المجنون، وجدته تارة يطرق الباب بقبضتيه وتارة ينبش في خشبة بأظافره كحيوان بري يعجز عن الوصول لفريسته، ثم بدأ يرجع خطواتًا ليركض على قوائمه الأربعة ثم يرتطم بالباب بكتفه كحيوان الغوريلا، أخذ يكرر فعلته حتى أثمرت في النهاية عن تحطم الباب، فوجدته يتقدم بتروٍ نحو سيلفيا التي كانت ترتعد من الخوف ولكن قبل أن يصل إليها أمسكت بإناء قهوة ساخن كانت تعده لنفسها قبل مجيئه لتقذفه في وجهه، فتأوه الرجل من الألم الذي لحق به وأخذ يبطش بيديه في الهواء من حوله في غضبٍ لتحاول المسكينة الهرب من جانبه ولكن ولحظها العسر لحقت إحدى يديه بها ليُسقطها أرضًا ويجثو فوقها، ثم أخذت

ضربات قبضتيه تطول جسدها بكل قوة عدة مرات حتى توقفت سيلفيا عن الحراك وباتت جثه هامدة، ولكنه لم يتوقف عن اطلاق العنان لقبضتيه لتهوي عليها مرات أخرى عديدة بلا هوادة حتى تهشمت رأسها ودُكّت عظامها، مرت دقائق قليلة على مواصلته لضرب جثتها الهامدة حتى توقف وبدأ يجول في المكان مرة أخرى.

صوت المحقق يتحدث بفضول بعد أن توقفت الشاهدة عن الحديث:

- وما الذي حدث بعد ذلك؟

صوت الشاهدة:

- أقفلت باب غرفتي مجددًا وأنا أدعو ألا أكون ضحيته التالية، لا أتذكر الوقت الذي خرجت فيه من غرفتي، ولكنه كان بعد مرور بعض الوقت على سماعي لصوت تحطم زجاج النافذة المجاورة لباب المنزل، كان الصمت قد أطبق على المكان لفترة كافية، فخرجت لأتفقد المكان في حَذَرٍ فلم أجده، حينها هرعت خارج المنزل دون أن التفت خلفي هاربة إلى الشارع.

صوت المحقق:

- وإلى أين كنت تنوين...

ضغط المفتش بيرنز على زر التوقف في جهاز التسجيل من أمامه وهو يحدق شزرًا نحو ديفيد، كانت عينا ديفيد زائغتين فيما حوله وكأنه يحاول استيعاب ما سمعه للتو، هل يعقل أن يكون هذا ما حدث؟ هل يعقل أن يكون عقله قد وصل في خداعه إلى تلك الدرجة؟

فتح المفتش بيرنز ملف الجريمة مجددًا ليُخرج الصور التي التقطها الطب الشرعي للقتيلة ويلقيها لتفترش على الطاولة من أمام ديفيد الذي أخذ ينظر لها بتمعن، كانت عدة صور بأبعاد مختلفة لجسد سيلفيا الذي تلون بكدمات وسحجات شملت معظم جسدها، بينما رأسها المهشم أو ما تبقى يسيل منه بحر لزج من الدماء، لكن ما أثار فزعه حينها ليست تلك اللقطات الدامية للقتيلة، ولكن كان أحد الصور التي التقطت لإناء القهوة المُلقى على الأرض والذي اختلط قهوته بالدماء التي طالته من الجثة، إناء قهوة؟! هل يُعقل أن عقله قد صور له مشهدًا آخر مغاير لحقيقة ما حدث ذات حين؟

فتح ديفيد فاه في صمت وهو عاجز عن الحديث لا يدري ما يقول وعيناه تتنقل بين الصورة والأخرى يتفحصهم في حيرة من أمره، حتى رفع رأسه أخيرًا لينظر إلى الاثنين من أمامه وقد خرجت أولى الكلمات من فمه:

- أنا، أنا لا أفهم شيئًا.

التفت الطبيب أدموند برأسه إلى المفتش بيرنز في هدوء، فقام الأخير ليلتقط الصور من أمام ديفيد ويبدأ في وضعها في الملف مرة أخرى، وقبل أن يعود المفتش بيرنز لمجلسه حدثه الطبيب أدموند قائلًا:

- حضرة المفتش بيرنز، هلا تكرمت وحللت الأصفاد عن يدي بروفيسور هادسون؟

لم يتوقع المفتش بيرنز هذا الطلب الغريب من الطبيب أدموند قط، خاصة وأن كلاهما يعلم خطورة الشخص اللذان يحتجزانه، فنظر إلى الطبيب أدموند ليبدأ بالحديث، ولكن قاطعه الطبيب أدموند على الفور وهو يطمئنه:

- لا تقلق، فأنا على يقين بما أقول.

تحرك المفتش بيرنز وهو يتنهد متأففًا نحو ديفيد ويضع يده في جيب معطفه ليُخرج مفتاح صغير ويفتح الأصفاد ليحل يدي ديفيد منها، ثم عاد إلى مجلسه وما زال شعور القلق يعتريه إثر تلك الخطوة التي لا تريح قلبه.

أخذ الطبيب أدموند نفسًا عميقًا قبل أن يبدأ في توجيه حديثه إلى ديفيد:

- إن الأحجية التي من أمامنا الآن ما زال بها بعض القطع المفقودة، لم أستطع العثور عليها بعد، ولهذا بروفيسور هادسون فأنا احتاجك، أريد منك أن تخبرني بكل ما يتعلق بحياتك خاصة في الآونة الأخيرة، أريد أن أعرف منك وعنك كل شيء، لعلي أستطيع أن ألقي الضوء على حقيقة ما حدث.

الفصل الثاني عشر

"القطع المفقودة بالأحجية"

ساعاتٌ ملّية مرت على الجميع دون حراك، كان ديفيد يتحدث والآخران ينصتان، كان الطبيب أدموند يدون ملاحظاته كل فترة في مدونة صغيرة، كان يعي جيدًا نظرات القلق التي تعتري وجه ديفيد كلما أمسك القلم ودوّن به، كان ديفيد يوجه حديثه في معظم الوقت إلى الطبيب أدموند لما يُبديه من انتباه واهتمام لكل ضئيلة وجليلة يقصها عليهما، وكان هذا على غرار حال المفتش بيرنز الذي كان يتنهد ويتأفف غالبية الوقت، بل كان كلما يمرّ الوقت في التحقيق كلما كان يُظهر المزيد من علامات الملل واللامبالاة لما يسترقه

سمعه، كان ديفيد في نظره مجرد قاتل مجنون ينتظر أن يزج به إلى قبضة العدالة.

وأخيرًا انتهى ديفيد من الحديث الذي بدأ بنشأته منذ الطفولة وانتهى بمقابلته لبريمان وزاركن، وعن الجحيم الذي ينتمي إليه وعن الأهوال التي فعلها، ثم نظر بعد ذلك إلى الطبيب أدموند بعينين تترجيان معرفة الحقيقة والبت في كل ما يحدث له من حوله.

تأمل الطبيب أدموند في صمت الملاحظات الذي دونها منذ بداية التحقيق لدقائق وهو يشحذ تفكيره وتركيزه لدراستها، ثم عاد لينظر للمفتش بيرنز قائلًا:

- الآن يمكننا إلقاء الضوء على ما نبتغي معرفته.

ثم التفت إلى ديفيد وهو يستأنف الحديث:

- سوف أحاول أن أسرد لكما النقاط التي إن أوصلناها ببعضها ستتراءى لنا الصورة كاملة.

ثم أغلق المدونة من أمامه وأقفل قلمه ليضعهما جانبًا ويعتدل في جلسته ليبدأ الحديث مجددًا:

- نحن أمام حالة نادرة تصيب نسبة قليلة لا تتعدى الـ ١٪ من البشر* تعساء الحظ، نحن نتكلم عن مرض يدعى الفصام بأنواعه المختلفة، وأحد الأمراض التي تسبب للمصاب أعراض معينة والتي قد تكتمل أو تنقص عنده، تلك الأعراض تشمل (الهلاوس، الأوهام، والضلالات)*.

---

*المصدر: المؤسسة المتخصصة بالأمراض النفسية والذهانية بالمملكة المتحدة وتُدعى "royal college of psychiatrists "

*الهلاوس/ Hallucination: هي إدراك لموجود غير موجود، كأن يتبين لك شيء ليس له وجود في الواقع وقد تنقسم الهلوسة الى عده أنواع ومنها الهلوسة في (البصر، السمع، اللمس، التذوق والشم)

*الوهم /illusion : هو تأويل مغلوط لواقع حقيقي كأن تتبين شيئًا ما على أنه شيء آخر.

*الضلالات/Delusions: هي اضطرابات عامة في التفكير وتتسم باعتقاد ثابت خاطئ لا يتزعزع، حتى لو اعتقد الآخرون من حوله خلاف ذلك أو برزت له أدلة دامغة تنفي ذلك، وهو اعتقاد راسخ في نفس المريض، ويتصف هذا الاعتقاد بأنه زائف أو خيالي أو مبني على الخداع.

*المراجعة الخاصة بالحالة المرضية السابقة واللاحقة لمرض الفصام تم مرجعتها من الكتاب المُترجم للطبيب النفسي "سيلفانو أرييتي" بعنوان "الفصامي: كيف نفهمه ونساعده" والذي تم تأليفه عام ١٩٥٥ وتم ترجمته عام ١٩٩١ للعربية.

وفي حاله ديفيد فنحن نتكلم عن نوع من الفصام يسمى بالفصام الارتيابي، وهو يصيب المريض بشعور أن مؤامرة كبيره تُحاك ضده وأن الجميع يتآمر عليه.

وهذا ما سبب الشجار الكبير الذي حدث بين بروفيسور هادسون وأحد قرنائه بالعمل، والذي أدى إلى إيقافه عن العمل لحين البت في التحقيق، حينها ذهب مع زوجته للعيش في منزل عائلتها لعجزه عن دفع إيجار منزلهما والرحيل عنه، ومع شعوره المتزايد بالاضطهاد والضغوط النفسية بدأت الأعراض الأخرى تخرج من عنان عقله، فما بدا طيلة حياته من غرور وثقة ومبالغة في وصف النفس، ما كان سوى ضلال الاعتقاد أو ما يسمى بجنون العظمة ويسبب هذا الضلال في الاعتقاد لدى المريض بأنه حالة استثنائية تختلف عمن سواها، متفوقة عنهم بقدرات ومواهب قد تكون خارقه في بعض الأحيان وقد تصل إلى ادعاء النبوءة في بعض الأوقات، ويحاول المريض حينها إقناع من حوله بذلك، وفي حالة بروفيسور هادسون فإن هذا الخلل العقلي جعله يشعر بقوة وعظمة غير عادية فبدأ عقله باختراع وقائع خيالية تتسق مع المشاعر التي تعتريه للهروب من الواقع الفعلي الذي يعيشه.

وهنا بدأت رؤية بروفيسور هادسون للمخلوقات التي تراءت له من قبل على فترات متباعدة أن تتزايد في الظهور لتصبح الواقع الذي يعيشه ويراه من أمامه، فبدأ بالظن بأنه يمتلك القدرة على رؤيه مخلوقات من عالم الجحيم التي تتعقبه وتحيك المؤامرات لقتله والفتك به، مثلما حدث حينما أصابته هلاوس بصرية مثل ظهور المخلوق الذي كان يختبئ في الحديقة والشخص الذي كان يراقبه من بعيد، و تسببت الهلاوس السمعية التي كانت تحدث له في اعتقاده بسماع صوت رفرفه الأجنحة حول المنزل، وكذلك ما حدث له من أوهام كتوهُمه بأن رجل البريد هو مخلوق شيطاني متنكر في هيئة بشر وإلى آخره، ولكن طوال ذلك الوقت لم يتوصل عقل ديفيد إلى سبب مطاردتهم له في ذلك الوقت، كان هذا بجانب محاولة إقناعه لزوجته بما يحدث له والتي لم تصدقه ولو لوهلة وهذا قادها في النهاية إلى التواصل مع الطبيب بريمان...

- رويدك.

توقف الطبيب أدموند بغتة عن الحديث بعد الجملة التي قالها المفتش بيرنز له ليستمع إلى ما سوف يقول، فتحدث المفتش بيرنز بلهجة استخفافية ليسأله:

- ولماذا كان بروفيسور هادسون يبصر مخلوقات من الجحيم بالتحديد في كل مرة، لماذا لم تسبب له تلك الأعراض التي قلتها للتو في رؤيته لمكنسة طائرة تعتليها إحدى الساحرات أو لفيل زهري يتجول في الجوار؟!

فأجابه الطبيب أدموند معللًا:

- إن بروفيسور هادسون منذ نشأته مع والديه بالتبني وحتى كِبره كان دائم التغذية الذهانية والبصرية فيما يخص علم الشياطين بجحيمه ومخلوقاته، فوالده وحتى جده بالتبني كانا من أكبر علماء هذا المجال، فكبر ديفيد ونشأ متوغلًا في حب وشغف هذا العلم ليصبح هو الآخر عالمًا فيه.

ظل المفتش بيرنز ينظر له بملامح جامدة وكأن شرح الطبيب أدموند لم يؤت أي صدى لديه فعاد ليبدأ الشرح مجددًا بطريقة مبسطة:

- حسنًا، تخيل معي دلو كبير ممتلئ بالماء، وبعد فتره أصيب هذا الدلو بأحد الشروخ ليبدأ هذا الشرخ بنضح ما كان يحتويه الدلو وهو الماء، ومثلما حدث مع هذا الدلو كذلك بدأ عقل بروفيسور هادسون المريض بأن ينضح بأكثر شيء يملأه ويستحوذ عليه وهو عالم الشياطين، ثم عاد ليستأنف شرحه

غير مباليًا في نهاية الأمر بفهم المفتش بيرنز من عدمه، وقد نظر إلى ديفيد الذي كان ينظر بعين تملأها الحسرة على ما يسمعه.

- كانت السيدة مارج زوجة بروفيسور هادسون قد طفح بها الكيل بعدما تم فصل زوجها عن العمل نهائيًا، وقد قرر بدء عمل جديد كمؤلف لكتب تتخصص في هذا العلم بينما ما زال عقله يذهب أمامها يومًا تلو الآخر، حينها بدأت بالبحث عن حل لشفاء زوجها من علّة العقل التي يعانى منها، وقد قادها حظها العسر في التوصل إلى الطبيب بريمان والذي اتضح في النهاية أنه مريض نفسي ذو خلفية علميه يستتر خلفها، وقد بدأت بالتواصل معه قبل أن تتوفاها المنية بفترة قصيرة، وحينها أقنع الطبيب بريمان بروفيسور هادسون بأن يبدأ بالعلاج لتنفيذ آخر رغبات زوجته المتوفية وقد أغراه بالبدء في علاج الاكتئاب الذي كان يعتصر قلبه ألمًا وحزنًا عليها، ثم تمهل لثوانٍ وكأنه يفكر قبل أن يستطرد قائلًا: ولكن في الحقيقة لا أعرف ما كان يعتزم الطبيب بريمان حينها، هل كان ينوي المضي قدمًا في علاجه له أم أنه كان يريد البدء في مسعاه المجنون! ولكن كل ما أعرفه أنه بدأ بتنفيذ خطته بعد سماع اعترافات القس جوناس له، فبدأ هاجسه بأنه مكلف بمهمة إلهية لتنقية البشر ممن يعيثون الفساد في الأرض دون فرصة لكشفهم.

- هل أفهم من حديثك هذا باقتناع الطبيب بريمان بأنه مكلف من قوى عُليا بمهمة إلهية؟ وبأنه يعاني من جنون العظمة* أيضًا؟

التفت الطبيب أدموند ليجيب المفتش بيرنز على سؤاله:

- بالتأكيد، لقد كان هذا الوغد قادرًا على إخفاء ما يظنه بنفسه طوال الوقت دون أن يدري أحد بأمره.

ثم عاد مستأنفًا حديثه:

- وكما كنت أقول فما زلت لا أدرك ما كان يضمر من نية في بداية الأمر، ولكن أستطيع القول بأنه قد بدأ في تنفيذ خطته دون تمهل وتطبيقها على عقل بروفيسور هادسون ضاربًا بعرض الحائط جميع الأخلاقيات المهنية التي تعلمها في مسيرته كطبيب نفسي، لكي يخلق بداخل بروفيسور هادسون ما يساعده على تحقيق مبتغاه، فأخفى عنه واقع اصابته بالمرض وإنكار ما يحدث له وإفاقته من خيالاته ليغرس بدلًا من ذلك الاعتقاد في وجودها في

*يمكن لمرضى ضلالات الاعتقاد أو جنون العظمة أن يصابوا به بعيدًا عن تسبب الاضطرابات الذهانية بذلك، فقد ينتج عن قلق، اضطهاد، تهديد، تأمر وأخيراً الاضطرابات النفسية.

عقله أكثر من ذي قبل بدلًا من محاولة محوها، فقد حاول التصديق على قناعات بروفيسور هادسون بإخباره بأنه هو أيضًا قد رأى تلك المخلوقات من قبل وأنه قد سمع صوت رفرفة الأجنحة يومًا ما مثلما سمعها بروفيسور هادسون هو الآخر في البلدة، ليثبّت القناعات التي بداخل عقل ديفيد بوجودها في الواقع الذي يعيشه، وكان من الطبيعي أن يأخذ بروفيسور هادسون حديث الطبيب بريمان على محمل الصدق كرجل ذو مصداقية ليس له مصلحة في الكذب عليه...

قاطعه المفتش بيرنز مجددًا ليسأله:

- وكيف عرف بأمر صوت المخلوق ذو الأجنحة الصادحة في السماء الذي كان يسمعه بروفيسور هادسون من قبل ليصدق على وجوده هو الآخر؟

فأجابه الطبيب أدموند معللًا:

- لربما قد عرف ذلك من زوجة بروفيسور هادسون حينما ذهبت إليه وشرحت له ما يحدث مع زوجها والأحداث الخيالية التي تحدث له، وقد يكون بروفيسور هادسون قد أفاض في الحديث بمكنونات صدره أثناء التنويم المغناطيسي أو أن الطبيب بريمان قد قاده للبوح بها أثناء ذلك.

التفت المفتش بيرنز ليسأل ديفيد بأسلوب استجوابي:

- ولماذا أخفيت منه حينها أنك نفسك كنت قد سمعت بالفعل ما يحدثك عنه من قبل؟

فأجابه ديفيد بصوت مرتبك:

- لقد ترددت كثيرًا حينها في الإفصاح عن حدوثها لي أيضًا، خاصة وأن الرجل الذي يُعالج السلامة الذهانية للمرضى خَشِيَ أن يُفصح بها لأحد كي لا يُتهم بالجنون، فما بالك إن حدثته بذلك فربما يظن بي الجنون أيضًا، فربما يصدق ما يُحدّث به نفسه ولكنه بالتأكيد لن يصدقني، فخشيت أن ينتهي إفصاحي هذا بإيفادي إلى إحدى المصحات.

تمهل المفتش بيرنز عن طرح أسئلته وهو يفكر محاولًا تركيب القطع المفقودة من الأحجية في موضعها بداخل عقله، ثم عاد لينظر إلى الطبيب أدموند بعد أن توقف عن الحديث وكأنه قد اكتفى من تحقيقه، فبدأ الطبيب أدموند بالحديث مرة أخرى:

- وبعد أن انتهى الطبيب بريمان من علاج الاكتئاب الذي يعاني منه بروفيسور هادسون مكتفيًا به فقط، تاركًا الأفكار الأخرى لتجول في عقله

وتترسخ فيما كان يعتقد أكثر من ذي قبل، حينها قرر الطبيب بريمان البدء في الاستيلاء والسيطرة على عقله بشكل كلي والظهور له في هيئة زاركن مبعوث الجحيم ومرشده نحو عالم جديد، حاكه له بمهارة ليعيش كبطل فيه ويحقق بداخله الغاية التي يبتغيها وما كان من ديفيد إلا أن وقع في...

- رويدك.

قاطع المفتش بيرنز الطبيب أدموند للمرة الثالثة، ليسأله وعلامات الاستنكار ما تزال على وجهه:

- إن القصة التي رواها الطبيب بريمان لبروفيسور هادسون هي قصة واهية لا تنطلي على عقل طفل صغير، فكيف صدقها بهذه البساطة؟

فأجابه الطبيب أدموند:

- إن مريض الفصام ليس من الصعب عليه تصديق قصة خيالية على عكس الشخص الطبيعي، وخاصة إن كانت تخدم قناعاته الشخصية التي يظنها بالفعل في عقله، فعلى الرغم من عدم تصديق بروفيسور هادسون لما حدثه به الطبيب بريمان أو بالأصح زاركن، إلا أن عقله كان يتوسل حرفيًا لأي أدلة ليصدق المعتقدات المترسخة داخله وهى وجود مخلوقات الجحيم التي

تتآمر ضده دون معرفة سبب ذلك، فأتى زاركن بأدلة وبراهين تثبت لبروفيسور هادسون أن زاركن يعرف عنه ما لا يعرفه أحد سوى والديه وزوجته المتوفية، فحاك له رواية أنه يعرف أنه كان طفلٌ مُتبنى وُجد أمام منزل عائلته وهو طفل صغير.

- كيف عرف ذلك عني؟ أعنى كيف عرف بأنني طفل مُتبنى؟

التفت الطبيب أدموند نحو ديفيد الذي طرح السؤال بنبره تتخللها الحيرة ليجيبه:

- ربما طرح هذا السؤال على زوجتك حينما زارته سابقًا، فمرض الفصام مرض وراثي ولذلك لربما سألها عن التاريخ المرضي للعائلة فعرف منها أنك مُتبنى، وربما طرح عليك هذا السؤال بنفسه وانسابت منك تلك الإجابة دون أن تدري أثناء إحدى الجلسات.

- وكيف عرف أنه كان يتراءى لي تلك المخلوقات حينما كنت يافعًا؟ فأنا لم أقل ذلك لأي أحد على الإطلاق، لقد كان هذا سري الوحيد!

- إن مريض الفصام غالبًا ما يصاب بأعراض المرض في سنٍ باكر، فعلى الرغم من اصابته بتلك الأعراض حينها، إلا أنها قد لا تكون استفحلت عليه

إلا بعد سنوات طويلة، وهذا ما حدث لك بالفعل، ومجددًا قد يكون تأكد من تلك المعلومة باعترافك أنت دون أن تدري أثناء الجلسات.

تحدث ديفيد وخيبة الأمل تملأه:

- لقد استطاع الطبيب بريمان استغلال تلك الجلسات أسوأ استغلال.

فأجابه الطبيب أدموند:

- أخشى أن أخبرك أن الطبيب بريمان قد استغلها أيضًا لهدف آخر لا تعرفه بعد.

أدام ديفيد النظر إليه بعينين حائرتين منتظرًا سماع الأسوأ، لُيلقي الطبيب أدموند على مسامعه بحلٍ للغز لم يتأتَ على ذهنه بعد، فبدأ بالحديث ليسأله:

- ألم تتساءل من قبل لماذا كان قناع زاركن مألوف لك؟! ولماذا كنت تحسب أنك رأيت ذلك الطلسم على قِنّينة التحول من قبل؟ وشعورك بأنها من ذكريات ماضية لك؟

فأجابه ديفيد وقد ازداد حيرة وهو يتذكر ما قد تلاه الطبيب أدموند عليه:

- هذا صحيح، فقد كنت بالفعل أشعر بأن زاركن شخصًا قريبًا لي كنت أعرفه سابقًا، والطلسم على القِنّينة، ما زلت حتى الآن يخالجني شعور من الماضي بأني قد رأيته مرات عدة بالفعل.

أعاد الطبيب أدموند ظهره للوراء ليستند على مقعده، ليبدأ بشرح اللغز المطروح من أمامه وهو يقول:

- أخشى أن ما سوف أقوله الآن هو أكبر دليل على خطورة أن يقع العلم في يد من يسيء استغلاله، فأثناء عمليه التنويم بالإيحاء يصبح العقل الباطن أو اللاوعي في حالة انصياع تام للمعالج للولوج إليه وعلى خلاف العقل الواعي، فالعقل الباطن لا يمتلك القدرة على المسائلة أو التشكيك فيما يتلقاه من معلومات أو افتراضات حتى وإن كانت خاطئة أو غير منطقية، فسوف يقبلها كشيءٍ حقيقي، وسوف يبدأ بتحويل تلك المعلومات الخاطئة إلى صائبة، وحتى الافتراضات الخاطئة إلى تجارب وأحداث، فتصبح مطبوعة في العقل من خلال الاعتقاد*،

* المرجع: الكتاب المترجم بعنوان "قوه عقلك الباطن" للطبيب "جوزيف ميرفي".

وفي حالتك قرر الطبيب بريمان زرع ذكريات زائفة داخل عقلك، ذكريات بأنك تعرف هذا القناع وتثق في صاحبه وأنك تعتقد في معرفتك الماضية بطلسم القِنّينة، كانت تلك الاعتقادات من الركائز التي اعتمد عليها في محاوله اقناعك بتصديق ما يلقيه على مسامعك حينها واستساغتك له.

- وكأن عقلك المريض يحتاج لتلك المبررات.

التفت الاثنان إلى المفتش بيرنز بوجوه مستنكرة للجملة التي قالها مستهزءًا بحالة ديفيد المرضية مما أشعره بالحرج قليلًا، فقرر سريعًا طرح سؤال موضوعي ليتحاشى نظراتهما إليه، فتحدث قائلًا:

- وكيف صدق بروفيسور هادسون أنه سيتحول إلى وحش بمجرد تناوله للترياق؟ هل كان هذا من فعل عقله الباطن أيضًا؟

فأجابه الطبيب أدموند:

- على الرغم من تشكك بروفيسور هادسون في حديث زاركن له، إلا أنه سرعان ما استطاع زاركن أن يحوز على ثقة بروفيسور هادسون اللامحدودة فيه، وهذا ما جعله يثق فيما يخبره به في حدوثه والشعور بفاعليته أيضًا مثلما يُطبق الأطباء العاديين نظرية البلاسيبو* على مرضاهم بالفعل، بجانب أن

عقل المريض سوف يصدق أي معطيات تُعطى له طالما أنها تخدم الواقع الخيالي الذي يعيش فيه، وكان الترياق بالنسبة له بمثابة حدث فاصل ونقطه تحول في واقعه، تغيره من مجرد شخصٍ عادي إلى بطل قصته التي تجري في عقله، فكما ذكرت سابقًا أن ضلالات العظمة تحثه على الاعتقاد بأنه ذو قدرات خاصة و مختلف عن الآخرين، وقد حان الوقت ليبدأ عقله بتفعيل تلك المعطيات واثباتها فبالتالي كان من الطبيعي أن يصدق ذلك ويعيش في وهمه الخاص.

*البلاسيبو/ Placebo: وهو يعنى العلاج الوهمي والذي يعتمد في نجاحه على قوة الاعتقاد حيث من الممكن أن يعطي الطبيب المريض دواء وهمي ليس له أي تأثير، ويخبره أن هذا الدواء سوف يعالج ما به من علّه، وكذلك من الممكن اجراء جراحة وهمية للمريض أيضًا لإيهامه بأنه تم شفاؤه، وأكدت الأبحاث ان غالبية المرضى الذين تم تطبيق هذا العلاج الوهمي عليهم قد تم شفائهم بالفعل مما يعانون منه معتمدين فقط على قوه اعتقاد الشخص وقناعته، المرجع: كتاب "انت البلاسيبو" للكاتب "جو دسبنزا" والذي تم ترجمته الى العربية لاحقًا.

عمَ الصمت على المكان لبرهةٍ والاثنان يحاولان ترتيب ما تم شرحه لهما من قبل الطبيب أدموند، فاستأنف شرح بقية ما كانا يجهلانه:

- وبعد أن انتهى زاركن من إقناع بروفيسور هادسون بهويته الجديدة بدأ في توجيهه نحو الضحايا التي أراد التخلص منها، واهمًا إياه بأنهم جزء من المسرحية التي تجري في عقله وأهداف يجب عليه التخلص منها ليظفر بالغاية التي يسعى لتحقيقها.

فسأله ديفيد مستفهمًا:

- وما سبب إعطائي الترياقين، وخاصة ترياق التحول الذي يزيد في عقلي الهلاوس والأوهام طالما أنى مريض بهما بالفعل ولا أحتاج إليه.

فأجابه الطبيب أدموند:

- كان الطبيب بريمان ينوي استخدامك كأداته الخاصة لتنفيذ رغباته، ولم يكن يرغب في خسارتك، لذلك وضع على عاتقه مهمة ترتيبات متى يظهر الوحش ومتى يقمعه خشية افتضاحك وضياع مجهوده هباءً فلذلك لزمه فعل أمرين، الأول يكبح جماح خيالك في الوقت الذي لا يحتاج إليه فيه، الثاني يزيد من خيالاتك ويؤكد حضورها في الوقت المطلوب خشية عدم

حدوثها في ذلك الحين، ولذلك ففي الأوقات التي لزمه استخدام ديفيد البشري الذي يُرتب لعملية القتل بدهاءٍ حتى لا يفتضح أمره كان يعطيك ترياق التخفي، وهو مجرد إحدى أدوية مضادات الذهان والذي يأتي مفعوله في وقتٍ قريب، مُغلف بكلمات تصفه بصفات سحرية تُناسب المسرحية التي تجري داخل عقلك وغالبًا ما يكون قد استخدم مهدئ "الكلوربرومازين"* وهو من أكثر المهدئات شيوعًا، إنه كذلك الذي أعطيناه لك منذ قليلٍ أثناء فقدانك للوعي.

تفاجأ ديفيد مما حدثه الطبيب أدموند به لتوه، فحدثه المفتش بيرنز مستهزئًا بردة فعله:

- ماذا؟! هل تتوقع أن نترك خيالك المريض يعمل لكي تطيح بنا وتحاول قتلنا نحن الآخرين.

* كلوربرومازين Chlorpromazine: وهو الدواء الأول الذي وُضع حيز الاستعمال في الخمسينات من القرن الماضي، إذ كان هناك حاجة لدرجة معينة من التهدئة لعلاج الفصام فيبدأ مفعوله بعد نصف ساعة من تعاطيه، ويزيد او يقل الوقت على حسب النسبة الموصوفة، المرجع:

BAP/ British Association psychopharmacology

حملق به الطبيب أدموند في حنقٍ، فهو بالفعل قد بدأ يفيض به من أسلوب حديثه لديفيد والاستهزاء به كلما سنحت له الفرصة، فأشاح عنه بنظره وهو يستأنف حديثه قائلًا:

- وكذلك في الوقت الذي أراد فيه ظهور الوحش القابع في عقلك كان يعطيك ترياق التحول.

ثم بسط الطبيب أدموند يده ليمسك بملف القضية ويعبث به لثوانٍ ليخرج من إحدى جراباته غلافًا بلاستيكيًا به ثلاث قنِّينات خشبية منقوش عليها طلسم ما، وحين أبصرها ديفيد ارتعدت أساريره لما أحدثته من تدمير في حياته، فنظر إليه الطبيب أدموند وهو يحملها قائلًا:

- تلك هي القنِّينات الثلاث التي جمعناها من مواقع جرائم القتل التي خلّفتها وراءك، إنها قِنّينات وُجد بداخلها بقايا ترياقٍ مصنوع من مادة مستخلصة من نبات البيوت*، مادة تتسبب في حدوث هلوسة قوية فور تناولها، بل ويمكن أيضًا التحكم في كمية التركيز للتحكم في وقت التأثير على الشخص المُتعاطي.

* البيوت peyote: هو نوع من الصبار المعروف بتأثيراته المُهلوسة لما يحتويه من عده مواد تؤثر على العقل البشر، ومن ضمنها مادة المسكالين mescaline وهي ماده تندرج تحت قائمة "المهلوسات الطبيعية والتي يكاد يُقارب تأثيرها مادة ال LSD وهي اقوى مادة مهلوسة عرفتها البشرية. المرجع: كتاب "A Chemical Love Story" للكاتبين "Alexander & Ann Shulgin".

أطال المفتش بيرنز النظر حينها نحو القنِّينات ثم استفسر سائلًا:

- وهل يمكن أن يكون تأثيرها بهذه القوة؟

فأجابه الطبيب أدموند بضحكة بسيطة ساخرة:

- لنقل حضرة المفتش إنها كافية لإقناع حصان عادي بأنه بيجاسوس* اللعين.

ثم تطلع صوب ديفيد بنظرةٍ آسفة وهو يستطرد: لقد كان عقلك بالنسبة له مسرحًا كبيرًا يتحكم بإضاءته وقتما يشاء، يعرف متى يُغلق الستار عنه ومتى يزيد من إضاءة أنواره.

- لا تأسف علي.

تحدث ديفيد حينها وقد لمع في عينيه بريقا إصرار وعزم غريبان ليردف قائلًا:

- ما زال للوحش بداخلي مهمة أخرى، مهمة القصاص من الوحش الحقيقي وراء كل ما حدث، وعلي القيام بتحقيقها مهما كلفني الأمر.

---

* بيجاسوس Pegasus: هو حصان أسطوري في الميثولوجيا الإغريقية، يمتلك أجنحة تمكنه من التحليق في الهواء، المرجع:

كتاب Mythology Timeless Tales of Gods and Heroes للكاتبين Edith Hamilton and Jim Tierne.

أدرك المفتش بيرنز جيدًا ما يرمي إليه ديفيد، فتحركت يده ببطءٍ نحو جراب سلاحه الناري ونظراته منصبة نحو ديفيد في ارتياب من خطوته القادمة، في حين أن عينا ديفيد كانت تتابع حركة يد المفتش في هدوءٍ لا يبشر بالخير.

تيقن المفتش مما سوف يفعله ديفيد تاليًا بمجرد أن رأى الابتسامة البسيطة التي ارتسمت على ركن شفتي ديفيد، ندم حينها على قرار حَلَّ الأصفاد من يديه بناءً على طلب الطبيب الأحمق الذي أكد بأن الوحش القابع بداخله لن يظهر، ولم يدرك أن ديفيد نفسه يمثل خطورة أكبر من الوحش ذاته، فقام المفتش بيرنز بفتح جراب سلاحه الناري على الفور، ولكن قبل أن يخرجه ليشهره في وجه ديفيد، نهض الأخير سريعًا ليحمل الطاولة الحديدية بكل ما أوتي من عزمٍ في الهواء نحو المفتش بيرنز لترتطم به وتُسقطه أرضًا لتستقر فوقه، بينما سقط الطبيب أدموند جانبًا ولم تطله إصابة مباشره من الطاولة، حاول المفتش بيرنز والألم يعتصره الزحف بجسده للوصول لسلاحه الناري الذي أُطيح من يده لمسافه قريبه منه، حاول جاهدًا الوصول إليه، ولكنه أخفق في ذلك، حيث كان جسده مثبتًا في الأرض يعتليه الحمل الثقيل للطاولة الحديدية، فاقترب ديفيد من السلاح الناري لينحني ويلتقطه من الأرض ثم أخذ يتطلع إليه وهو يحركه في راحة يده قائلًا:

- أشكرك على سلاحك الناري هذا، فيبدو أني لن أصبح سلاح القتل القادم.

تحرك ديفيد في هدوء صوب الباب المُغلق للغرفة ثم وجه السلاح الناري صوب قفل الباب استعدادا لتحطيمه والهرب منه.

- فلتكف عما تفعله.

صاح الطبيب أدموند عاليًا نحو ديفيد بينما كان مُسْتَوٍ على الأرض، فالتفت ديفيد إليه ليجيبه:

- هل سوف تحاول إيقافي أيها الطبيب، فلن يردعني شيءٌ عن قتل الطبيب بريمان جزاء ما فعله بي وبغيري، حتى أنت.

ثم التفت ديفيد ليصوب سلاحه نحوه وهو يسأله:

- والآن حانت خطوتك التالية، والسؤال هنا، ماذا سوف تفعل؟

فأجابه الطبيب أدموند بنبرة إصرار قائلًا:

- ما كان يجب على فعله قبل فوات الآوان.

الفصل الثالث عشر

"اللمسات الأخيرة"

تراءت في مُخيلة الطبيب أدموند الأحداث التي توشك على الحدوث، وربما كانت تلك نسخة واحدة من أخرى غيرها، ولذلك وقبل أن يقوم المفتش بيرنز بإشهار سلاحه الناري بثوانٍ معدودة أقبض على كتفه في عجالةٍ ليضغط عليه بقوة وهو ينظر إلى ديفيد قائلًا بصوت يعلوه الحزم:

- لن يُقبض على المفتش بيرنز بتهمة قتله لمتهم بحوزته، ولن يتحول بروفيسور هادسون للقاتل الذي يبغض كونه ما أصبح عليه، لن تُراق دماء اليوم، ليس الآن وليس بعد حين، فلتكفا عما تنويان فعله كلاكما.

أثارت كلمات الطبيب أدموند الحازمة الهدوء والتروي النسبي في قرارة نفس الاثنين، ولكن لم يردع حديثه هذا نظرات الترقب التي أفاضت المكان شزرًا بينهما، فعاد الطبيب أدموند للحديث: أعدكما بأننا سوف ننال من الطبيب بريمان واليوم، ولكن بالسبيل الصحيح وليس بسبيله هو، ثم جلس مجددًا وهو يردف: لدي خطة إن تمكننا من تطبيقها سننال القصاص العادل لكل ما فعله الطبيب بريمان، ولكن يتحتم علينا تنفيذها اليوم، ثم نظر إلى المفتش بيرنز ليسأله: ألم تخبرني أنك أبلغت اليوم شرطة المقاطعة بحوزتك لمرتكب تلك الجرائم، وأنهم أخبروك بقدوم فريق منهم في الغد لاستلامه ونقل حوزته إليهم؟

لم يفهم بيرنز ما يرمي إليه الطبيب أدموند ولكنه أومأ إليه بالإيجاب، فعاد الطبيب أدموند مستأنفًا:

- نحن سنطلق سراح بروفيسور هادسون اليوم ليوقع بالطبيب بريمان العقل المدبر وراء تلك الجرائم.

أثار اقتراح الطبيب أدموند الدهشة على وجه ديفيد قبل المفتش بيرنز، فعاد على الفور إلى الحديث:

- سنجعل بروفيسور هادسون يهاتف الطبيب بريمان ليطلب مقابلته اليوم معللًا عوده حالة الاكتئاب له، والتي قاربت أن توصِله إلى مشارف الانتحار ولذلك فهو بحاجه إلى رؤيته اليوم قبل غدٍ خشية أن تتدهور حالته أكثر من ذلك، وسيذهب إليه حينها وفي حوزته جهاز تصنت صغير يعمل على تسجيل حديثهما أثناء اللقاء، حينها سيفصح بروفيسور هادسون عن معرفته بمخطط بريمان واكتشافه بأنه كان يتلاعب به منذ البداية.

فحدثه المفتش بيرنز متشككًا:

- وما الذي يجعلك تحسب أنه سوف يوافق على مقابلته؟ وحتى إذا وافق على ذلك، ما الذي يجعلك تحسب أنه سوف يبوح له بخبايا نفسه؟

أجابه الطبيب أدموند حينها:

- إن الطبيب بريمان في المرة الأخيرة قد ألقى بروفيسور هادسون في قلب الأحداث ليتخلص من القس جوناس مهما كلف الأمر ودون ترتيب، متوقعًا افتضاح أمره والقبض عليه لا محالة، ولكنه إذا أدرك أن بروفيسور هادسون

ما زال طليق واستطاع الإفلات بفعلته بطريقة ما دون أن يُقبض عليه، حينها سوف يُسر للغاية بأن السلاح الذي ظنه قد فُقد منه في آخر معركة ما زال موجودًا ومتاح له لاستخدامه مرات أخرى، ولذلك فسوف يعود حتمًا للاهتمام به ومقابلته، ولا تنس أن ضلال العظمة لدى بريمان يدفعه دائمًا للحديث والتباهي بحدة ذكائه ودهاء عقله وبكونه مختارًا دون غيره كلما سنحت الفرصة له، لذلك من البديهي حينها أنه إذا واجهه بروفيسور هادسون بما يعرفه سوف تتوانى له الفرصة مجددًا للتحدث عن عظمة خطته وإبداعه في تنفيذها، وهذا أمر أنا على يقين به ولا يحتاج لترجيح.

فسأله ديفيد حينها:

- وماذا بعد؟ ماذا سوف يُفيد إن اعترف لي وتركته لحاله بعد ذلك؟ من المؤكد أنه سوف يلوذ بالفرار تاركًا البلدة خشية أن أزج باسمه وما أعرفه عنه بعد ذلك.

فأجابه الطبيب أدموند وهو يضع يده على كتف المفتش بيرنز في ثقة قائلًا:

- حينما تخرج من منزل الطبيب بريمان وبصحبتك اعترافه المُسجل، سوف أكون بصحبة المفتش بيرنز في الخارج بانتظارك ليتم القبض عليه دون إتاحة أي وقت أو فرصة له ليولي الأدبار.

تحدث المفتش بيرنز حينها بنبرة متشككة ونظرة شاردة ليسأله:

- إن ما تطلبه مني هو لأمر جلل، فلماذا أخاطر بتلك الخطة وأنا بحوزتي القاتل الفعلي؟!

تحدث الطبيب أدموند على الفور ليجيبه وهو يعي جيدًا سبل اغراء نفوس البشر قائلًا:

- فلتفكر معي قليلًا، تخيل ما سوف تحظى به من شهرة إعلامية ومهنية حينما تُسلم لشرطة المقاطعة جميع أطراف الجريمة مدعومين بالأدلة والبراهين القاطعة للإدانة، حتمًا سوف يلاقي هذا استحسان السلطات ومسئوليها، ولربما يزكيك هذا للترقي في سلكك الوظيفي، ولربما يؤدي لانتقالك لمكان أفضل من أجل الاستفادة من حنكتك الوظيفية بدلًا من مكوثك هنا في تلك البلدة النائية لبقيه عمرك، فكر في كم الشهرة التي سوف تحظى بها حينما يشيد الإعلام بكشفك للوقائع والأدلة وحدك دون أي

مساعدة، وبمجرد وصول تلك القضية إلى الرأي العام سوف تتهافت الصحافة للحصول على مقابلات معك، سوف تتناقل وسائل الإعلام أحاديثك المسجلة لأسابيع بل لأشهر كأحد أذكى وألمع مفتشي الشرطة في إنجلترا كلها.

توقف الطبيب أدموند عن الحديث لينتظر تعليق المفتش بيرنز على ما حدثه به، كان المفتش بيرنز حينها مُلتزم الصمت يفكر في الأمر لبرهة من الوقت، لم يكن التفكير في خطورة ما سوف يقوم به، بل التفكير في المُحظيات التي سوف ينالها بعد القيام بذلك، فابتسم حينها بابتسامة بسيطة وهو يجيبه:

- ولم لا؟! ثم التفت إلى ديفيد قائلًا: ففي النهاية ما يهمني هو الوصول للحقيقة كاملة لكي أخدم العدالة كما ينبغي.

جلسا الطبيب أدموند وديفيد في المكتب الخاص بالمفتش بيرنز داخل قسم الشرطة منتظرين إتيانه من الخارج، والذي جاء بعد عدة دقائق وهو يحمل في يده صندوق خشبي صغير الحجم، تحرك به ليتبوأ مقعده خلف مكتبه ويفتحه ليُخرج ما يحتويه، كان بداخله جهاز مكوّن من سماعة مُصغرة يتصل بها سلك رفيع يمتد بطوله ليتصل بجهاز تسجيل لا يتعدى حجمه كف اليد، فبدأ بالحديث موجهًا حديثه للاثنين الجالسين في مواجهته قائلًا:

- هذا هو الجهاز الوحيد لدى القسم، تُلصق السماعة على الصدر لمحاولة الوصول إلى أكبر قدر من الوضوح الصوتي أثناء التسجيل، بينما يتم تخبئة جهاز التسجيل الصغير مع الشخص في مكان بعيد عن الأعين المُتفحصة.

ثم أمسك الهاتف الموضوع على مكتبه ليُقربه ويضعه أمام ديفيد وهو ينظر إليه في سكون، فحدث الطبيب أدموند حينها ديفيد قائلًا:

- حسنًا يا ديفيد، لقد حان دورك.

سكن ديفيد عن الحديث للحظات وكأنه يُعد نفسه للخطوة القادمة ثم رفع سماعه الهاتف مخاطبًا بريمان، انتظر بفارغ الصبر سماع صوته على الهاتف ولم يخب ظنه، فبعد ثوان معدودة رفع بريمان السماعة ليتحدث:

- مرحبا!

- مرحبًا حضرة الطبيب، معك بروفيسور هادسون.

فتحدث الطبيب بريمان مازحًا.

- هل عدنا للرسميات مرة أخرى أم ماذا؟ مرحبًا عزيزي ديفيد كيف حالك؟

تعجب ديفيد من دهاء بريمان في الاسترسال في الحديث المعسول دون ظهور أي علامات دهشة جراء سماعه لصوت ديفيد، فاستأنف حديثه:

- أريد أن أقابلك لأمرٍ طارئ، فأنا لا أشعر أني على ما يرام، لقد عاد الحزن ليعتصر قلبي مجددًا بقدر لم أعد أستطيع إحتماله، أريد أن أقابلك على الفور إذا سمحت لي.

- لا توجد مشكلة، فمقابلتك موضع ترحاب لدي دائمًا، أمهلني فقط بضع الوقت حتى انتهي من الجلسات التي لدي ولتأتي لزيارتي في تمام الساعة التاسعة مساءً، فسوف أكون متفرغ حينها للجلوس معك كيفما نشاء.

- حسنًا، إلى أن ألقاك إذن.

- إلى اللقاء ديفيد.

وضع ديفيد السماعة ليغلق الخط ثم تطلع في هدوء إلى الطبيب أدموند وهو يقول:

- سوف أذهب لملاقاته في الساعة التاسعة.

تبادل الطبيب أدموند والمفتش بيرنز نظرات تنم عن سعادتهما الغامرة في نجاح مخططهما، ثم عاد الطبيب أدموند للنظر إلى ديفيد ليجده شارد الذهن

في مصيره المجهول وسط كل ما يجري من حوله، دون معرفة ما سوف يحدث له بعد ذلك، فمال قليلًا للأمام نحو ديفيد موجهًا الحديث له.

- لا تقلق بروفيسور هادسون، فأنت لا ذنب لك فيما اقترفته، أنت كنت مجرد أداة في يد الطبيب بريمان، ستحظى العدالة بالقاتل الحقيقي وراء تلك الجرائم وستحظى أنت بالعلاج الذي كنت تستحقه منذ البداية، وسوف أُشرف على علاجك بنفسي حتى تتماثل للشفاء كليًا، وأعهد الرب أمامك أنك سوف تكون بين يدٍ أمينة هذه المرة، ثم عاد للحديث والحماس يملأه: والآن لنُعدك جيدًا للقائك القادم.

ابتسم ديفيد لما بدر من الطبيب أدموند من نية طيبة تجاهه أملًا في أن يلقى العلاج الذي يحتاجه ليداويه، فربما يأتي اليوم الذي يعود فيه ليصبح شخصٌ عاديًا مرةً أخرى، شخصٌ بلا وحش.

الفصل الأربعة عشر

"لحظه الحقيقة"

- الساعة الآن قد قاربت التاسعة، لقد حان الوقت.

فتح ديفيد باب المركبة ليترجل منها فور سماعه للجملة السابقة التي حدثه المفتش بيرنز بها، راقبه الاثنان وهو يتحرك ليعبر الشارع متجهًا صوب منزل الطبيب بريمان، وقد كانت تقف مركبتهم في بداية الشارع بعيدًا عن الأعين، فتحدث المفتش وهو ما يزال يطيل النظر صوب ديفيد بنظراتٍ متشككة ليسأل الطبيب أدموند قائلًا:

- أرجو أن تنجح خطتك، فأنا لا أثق بالنسخة الدموية من دون كيشوت* هذا.

تعجب الطبيب أدموند من معرفه المفتش بيرنز لقصة دون كيشوت من الأصل، فيبدو أن بداخل هذا الشخص الفجّ غليظ الفكر تتواجد بذور شخصٍ مُثقف على غير المتوقع، فتحدث ليجيبه:

- لا تقلق، إن بروفيسور هادسون الآن يعي جيدًا ما يفعله، وانا أثق بقدرته على الإيقاع بالطبيب بريمان، فلا تنس كونه رجل علم قبل كل شيء.

فتنهد المفتش بيرنز وهو يهمهم قائلًا:

- أرجو أن تكون على حق.

ثم سكن لوهلةٍ قبل أن يردف.

* دون كيخوتي دي لا مانتشا/Don Quijote de la Mancha : أو كما هو شائع لدي العرب "دون كيشوت" وهو شخصية من رواية خياليه شهيرة في الأدب العالمي تحمل نفس الاسم من تأليف كاتب مسرحي يُدعى "ميغيل دي ثيربانتس سابيدرا" والتي تحكي قصة شخص عادي يحارب الطواحين الهوائية ظنًا منه أنه فارس نبيل يحارب التنانين والعمالقة ووحوش أخرى، وهو لا يعلم أن كل تلك الأمور تحدث داخل رأسه فقط.

- ولكن لابد من الإقرار بأن الطبيب بريمان استطاع الخروج بخطة ذكية فريدة من نوعها في تنفيذ ما أراد فعله.

- إنها ليست فريدة في شيءٍ إنها خطة "العبقري الشرير".

التفت المفتش بيرنز للطبيب أدموند وهو لا يفهم مقصده، فبدأ الطبيب أدموند بشرح ما يقصده:

- لقد كنت أعرف الطبيب بريمان منذ سنوات عدة، كنا زميلان سويًا في الجامعة، كان ذات حين مُهتم بالفلسفة الأدبية ومتابع شغوف للفيلسوف رينيه ديكارت* وفي أحد الأيام جاء لي بمقال قد قرأه لكاتب فلسفي يدعى بوزما*، كان قد كتب حينها مقال أكاديمي بعنوان " العبقري الشرير لديكارت"*.

---

*رينيه ديكارت/René Descartes: هو فيلسوف فرنسي شهير لُقب بـ"أبو الفلسفة الحديثة"، ومن أشهر كتاباته كتاب تأملات في الفلسفة الأولى- ١٦٤١م والذي ما زال يشكل النص القياسي لمعظم كليات الفلسفة، وهو صاحب المقولة الشهيرة "أنا أفكر، إذًا أنا موجود".

*اوتس كولك بوزما /: oets kolk bouwsma هو كاتب وفيلسوف أمريكي اشتهر بكتابه التحليلات الفلسفية للعديد من النظريات الفلسفية المرتبطة بقرنائه.

*مقال العبقري الشرير لديكارت/Decrtes' evil genius Essay : هو مقال نقدي فلسفي كتبه الفيلسوف اوتس بوزما وتم نشره في مارس ١٩٤٩.

ثم عاد ليردف: ينتقد المقال إحدى نظريات الفيلسوف ديكارت المطروحة في كتابه "تأملات في الفلسفة الأولى"* من خلال عرض لقصة عن شخص يدعى العبقري الشرير، يحاول خداع شابًا يدعى توم، وتزييف الواقع الذي يعيشه من حوله.

* كتاب "تأملات في الفلسفة الأولى/ "Meditationes de prima philosophia هي الأطروحة الفلسفية للكاتب والفيلسوف رينيه ديكارت والتي تم نشرها لأول مرة في عام ١٦٤١ (باللغة اللاتينية) وتم ترجمتها ونشرها باللغة الفرنسية (من قبل دوق لوين بإشراف ديكارت نفسه) في عام ١٦٤٧.

وكان المقال يتناول محاولتان من قِبل العبقري الشرير لخداع الشاب، حاول فيهما إيهامه بأن العالم ليس كما يراه، ليوهمه بواقع مغاير عن طريق تغيير كل الوقائع من حوله وزرع بذرة الشك في عقله عن عدم موثوقية الحواس وخداع المنطق المحيط بالواقع داخل رأسه، وإظهار أن العالم كله وهم كثيف، لتبوء محاولته في الأطروحتين بالفشل في النهاية، كان بريمان حينها مُفتتن بالفكرة التي طرحها المقال لفترة زمنية ليست بالقصيرة، ولربما كانت تلك هي السبب في إتيانه بتلك الخطة متأثرًا بالفكرة الأصلية للمقال، ولقد نجح بالفعل في تطبيق تلك النظرية على أرض الواقع، ولكن ما كان تنفيذها في الواقع بأمرٍ جائز التطبيق سوى على شخصٍ مريض مثل بروفيسور هادسون.

فسخر المفتش بيرنز حينها قائلًا:

- يبدو أن الجنون ليس بجنون، وإنما حقيقة ممكنة إن تم طرحها على شخص مجنون بالفعل.

عاد الاثنان للصمت مجددًا بعد ذلك وقد لاح لهما من بعيد وصول ديفيد لباب منزل الطبيب بريمان، لتبدأ اللحظات الحاسمة للإيقاع بالمجرم الحقيقي والفاعل الأصلي.

وقف ديفيد أمام أولى درجات السلم المؤدية لباب المنزل، أخذ نفسًا مليًا وبدأ بالصعود، حينها لفت انتباهه شيئًا، كانت دلفة الباب غير محكمة الغلق لتوارب جزئيًا عن موصدها، كانت قد توحي لأي أحدٍ من بعيد بغير ذلك، ولكن بالاقتراب منه تستطيع رؤية أن الباب لم يكن موصدًا في حلقه، حينها دفع ديفيد الباب بيده في تَوَجُّس ليفتحه ببطءٍ فوجد المنزل غارقًا في صمت مهيب.

- مرحبًا! حضرة الطبيب هل أنت بالداخل؟

قالها ديفيد وهو يطأ قدمه للداخل متقدمًا عدة خطوات قبل أن يتمهل ليتفقد المكان من حوله بحثًا عن بريمان، لم يلاقِ أي استجابة حينها، فاستمر بالتحرك نحو الداخل حتى تمهل في منتصف البهو، ثم تأمل السلم المؤدي للأعلى من أمامه، كان فضوله يخبره بالصعود للأعلى بحثًا عنه، ولكنه قرر الالتزام بالخطة الموضوعة، فتحرك مجددًا ليتوجه نحو غرفة الكشف أملاً في إيجاده هناك، فتح ديفيد باب الغرفة وهو يتطلع برأسه للداخل، لم يكن الطبيب بريمان هناك أيضًا، ولكن كان ينتظره بالداخل ما هو أسوأ بكثير، كان هناك الشيء الوحيد الذي لم يتوقع رؤيته مجددًا في حياته.

انقبض قلب ديفيد وهو ينظر في جَزَعٍ صوب قارورة زجاجية كبيرة الحجم مُلصقًا عليها ورقة مكتوب عليها اسمه، ومرسوم تحته نقش الطلسم الخاص بقِنّينات التحول موضوعة فوق المكتب، أطال ديفيد النظر للقارورة وهو يدلف للداخل متَوَجِّسا حتى اقترب من المكتب، انتبه حينها لوجود رسالة ورقيه تستلقي أحد اطرافها تحت الزجاجة مثبتة إياها في موضعها، أمسك ديفيد بالورقة المُثقلة بالكلمات في يده ليبدأ بقرائتها وبدأت شفتاه بالتحرك تلقائيًا مع كل كلمه يقرأها بها.

"عزيزي ديفيد،

بقرائتك لتلك الرسالة سوف أكون قد غادرت البلدة، لقد تحركت مبتعدًا عن الكنيسة ذلك اليوم ولكني لم أرحل بعيدًا، كنت انتظر إياك في ترقبٍ لمعرفة ما سوف يحدث بالداخل، فلم أكن لأترك وحشي الثمين دون معرفة مصيره القادم، لقد شاهدت أفراد الشرطة وهم يصحبونك للخارج وأنت برأسٍ داميًا ووعيًا غائب، عاري الجسد مقيدًا بالأصفاد كأحد الحيوانات، وحين هاتفتني اليوم تأكدت أنهم يعرفون بأمري وأن مقابلتنا هذه ما هي إلا خطة مُدبرة للإيقاع بي، أعترف باستغلالي لك ولحالتك الفريدة، ولكنك كنت السبيل لتحقيق غاية كبرى، أنت لست بوحش كما يظنون بك ولكنك

بطلي الخاص، لقد ساهمت في تحقيق ما عجز عنه الآخرون، ولهذا فإني أشكرك، أشعر بالأسف نحو المصير الذي سوف تلاقيه لاحقًا، فمهما طمأنوك من وراء ترتيب لقائنا هذا فهم كاذبون، ولكنني وللمرة الأولى سوف أخبرك بالحقيقة كاملة، سوف تظل بقيه ما تبقى من عمرك حبيس أحد المصحات، فلا أمل في شفائك كليًا، خاصة بعد تناولك لتلك لعقاقير المهلوسة التي زادت من حدة مرضك وقريبًا لن يستطيعوا كبح جماح عقلك ليوقف تلك الخيالات لمرة أخيرة، وحتى إن استطاعوا ذلك فلن يغامروا بخطورة خروجك لعيش حياة طبيعية وسط المواطنين الأبرياء، لن يسمح الطب بذلك ولن يسمح الرأي العام بإطلاق سراح قاتل مجنون إلى الحرية مرةً أخرى، هذا إن لم يطالب الرأي العام برأسك جزاء ما فعلته، ولربما سوف تنصاع سياسات العدالة لرغباتهم في النهاية، فنحن في نهاية الأمر بشرٌ قِماءٌ، ولكني أستطيع منحك الخلاص من هذا العالم إن أردت، فبداخل تلك الزجاجة من أمامك الكمية الأخيرة من ترياق التحول، إنها تذكرة ذهاب بلا عودة، فتلك الكمية كافية لتذهب إلى عالمك الخاص لتعيش به إلى الأبد، لربما يتراءى لك أن ما أحدثك به غير منطقي، ولكن ماذا لديك لتفقده في هذا العالم الظالم، ليس لديك أحدٌ لتفتقده ولا مستقبلٌ لتصنعه، فمستقبلك القادم سوف يكون إما خلف قضبان من يدعون القدرة

على شفائك مُحتجزًا طيلة عمرك، وإما وراء قضبان العدالة والتي لن تعيش مليًا بداخلها، ولكني أمنحك فرصة العيش للأبد في العالم الذي تحبه وتشغفه طيلة حياتك، فرصة لتصبح مرة أخرى مخلوق الجرول وحاكم الجحيم وحاميه، إنها سعادة لا توصف ولن تتواجد في مكانٍ آخر، القرار في يديك الآن، إلى اللقاء يا صديقي، إلى اللقاء يا أمير الجحيم".

تباطأت شفتا ديفيد وهو يقرأ آخر كلمات دوّنها الطبيب بريمان له، ثم التفت لينظر نحو القارورة للحظات ثم التفت برأسه مجددًا صوب باب الغرفة ليتأمله في سكون، الطبيب بريمان والطبيب أدموند، كلاهما يعرض قرارًا مختلفًا لمصير نهائي مختوم بقرار اللاعودة، ويقع على عاتقه الاختيار بينهما.

- لماذا تأخر ديفيد كل هذا الوقت؟

تساءل الطبيب أدموند بذلك، وقد بدأ القلق يتوغل في نفسه ويتجلى على وجهه، فالتفت إليه المفتش بيرنز وهو يسأله:

- لقد مكث في الداخل منذ ما يقارب الساعة، ما العمل الآن؟

- لننتظر قليلًا لعله يأتي عن قريب، ثم عاد الطبيب أدموند ليفصح بمكنونات صدره مهمهمًا:

- أتمنى فقط ألا يرتكب أي حماقة وتضيع مجهوداتنا هباء.

حينها صاح المفتش بيرنز به في غضب:

- أنا لن أنتظر حتى يقتل أحدهما الآخر، سوف أتحرك الآن.

ثم فتح باب المركبة بقوة ليترجل منها وبدأ يهرول نحو المنزل في عجالةٍ، فأسرع الطبيب أدموند باللحاق به وهو يحدثه محاولًا اقناعه بالعدول عن قراره قائلًا:

- رويدك رجاءً، فربما بفعلتك هذه سوف نخسر كل شيء، أمهله بعض الوقت.

فأجابه المفتش بيرنز وهو يسرع الخطى أكثر مقتربًا من المنزل:

- لم يكن على الاستماع إلى مقترحك السخيف من الأصل.

وصل الاثنان إلى باب المنزل ليجداه مفتوحًا، فتبادل الاثنان نظرات قلقة ثم أخرج المفتش بيرنز سلاحه الناري من جرابه ليحكم قبضته عليه، موجهًا إياه للأمام وبدأ بالتحرك للداخل بينما تحرك الطبيب أدموند خلفه هو الآخر.

تحرك الاثنان وهما ينظران من حولهما بخشية داخل المنزل، بينما كان المفتش بيرنز يشهر سلاحه الناري ويتلفت حوله منتبهًا لأي هجوم محتمل، وحينها أشار الطبيب أدموند للمفتش بيرنز تجاه باب الغرفة الموضوع بها لافتة "غرفه الكشف"، ليوجه المفتش بيرنز سلاحه في تجاهها وهو يتقدم بحذرٍ للأمام، دفع بيده الأخرى الباب ليفتحه على مصرعه ويدلف هو و الطبيب أدموند إلى الداخل، وضع الطبيب أدموند يده على كتف المفتش بيرنز لينزل يده الموجهة بالسلاح الناري إلى الأسفل وينظر إليه، حينها تحرك الطبيب أدموند بهدوءٍ نحو المكتب وهو يتفقد القِنّينة الزجاجية الفارغة الملقاة على الأرض وقد انساب بجانبها بضع قطرات مما كانت تحتويه، ثم انحنى ليلتقط الرسالة الملقاة على الأرض هي الأخرى لينصب نظره عليها وهو يقرأها في عجالةٍ، فاتسعت عيناه رعبًا لما أدركه، ثم التفت نحو نافذة الغرفة والتي كان زجاجها مُهشمًا بينما تتطاير أقمشة ستائرها من نسائم الهواء القادم من الخارج.

فأطل برأسه من النافذة للخارج وهو ينظر إلى الحديقة الخلفية للمنزل، وهو يهمهم في مرارة وحزنٍ شديد:

- يا إلهي، بروفيسور هادسون ما الذي اقترفته.

• عام ١٩٧٠ وبعد مرور سنة على الواقعة الأخيرة، توجه زوجان إلى قسم الشرطة ليدليان ببلاغٍ عن رؤيتهما لشخصٍ عاري الجسد يمشي على أطرافه الأربعة، كان قد لاح لهما إيبان توغلهما داخل غابة إيبينج أثناء قيامهما برحلة تخييم هناك.

• تم تمرير قانون إساءة استخدام العقاقير للمملكة المتحدة عام ١٩٧١ ضمن عدة قوانين داخل معاهدة اتفاقية المؤثرات العقلية لسنة ١٩٧١* التابعة للأمم المتحدة والتي تهدف إلى السيطرة على العقاقير ذات التأثير العقلي.

• تم التحقيق في واقعة تهريب بروفيسور ديفيد هادسون من قسم شرطة بلدة إيبينج، وقد أدلى الشاهدان بما يعرفانه عن القضية وأحداثها، وتم تسريح المفتش فيل بيرنز من العمل في الخامس عشر من يوليو عام ١٩٧٢ بعد ادعاء الطبيب هنري أدموند بأن المفتش بيرنز هو صاحب فكرة تهريب السجين.

• تم إصدار أمرًا بالقبض على الطبيب هانسل بريمان وتم تعميمه على مقاطعات إنجلترا، ليتم العثور عليه بعد ذلك عام ١٩٧٢ مُخْتَبِئًا في مدينة

*المرجع: اتفاقية المؤثرات العقلية لسنه ١٩٧١.

هامشر جنوب إنجلترا، وتم القبض عليه ليدلي بشهادته حول الرسالة التي تركها قبل هروبه، والتي قد اعتبرتها المحكمة دليل الإدانة ضده.

• أصدرت المحكمة العليا بلندن قرار بجعل مُجريات القضية سرية بناءً على طلبٍ مُقدم من مجلس علوم الأمراض النفسية والذُهانية، خشية أن تُعرِّض فعلة الطبيب بريمان سمعة الطب النفسي للسوء في ذلك الوقت وفقدان الثقة به من قِبل الرأي العام.

• أدلى الطبيب هانسل بريمان للمحكمة باعترافه بارتكاب فعلته، وتم الحكم عليه بقضاء عقوبة السجن مدى الحياة دون فرصة للخروج المشروط، ليلقي مصرعه منتحرًا عام ١٩٧٣ .

• نشرت جريدة كولشيست الإنجليزية في النصف الثاني من عام ١٩٧٣ خبر العثور على جثة شخصٍ يدعى ديفيد هادسون في حالة بدايات التحلل عند الأطراف الجنوبية لغابه إيبينج، وقد أدلى القسم الشرعي بأنه قد مات متأثرًا بجراحه جِراء صراعه مع أحد الحيوانات البرية.

• تم تسريب أحكام قضايا لبعض المحاكم الإنجليزية والتي تم صدورها في الألفية السابقة والتي سُميت بفضيحة تسريبات "المطرقة الخشبية

للعدالة/ the wooden hammer of justice"، وكان من ضمنها القضية الخاصة بالطبيب هانسل بريمان ليتعرف الرأي العام على جُرمه لأول مرةٍ عام ٢٠٠٤ متضمنةً حيثيات القضية، لتظهر حالة بروفيسور ديفيد هادسون للعلن، ثم نشر الطبيب ستيفن مارس عام ٢٠٠٨ إحدى المقالات الطبية عن الحالة الفريدة للمريض، وقد أرجح في كتابته أن المريض كان يعاني في الفترة الأخيرة قبل موته من مرض الهلوسة المستمرة.*

****

* متلازمة ما بعد الهلوسة الثابتة أو المستمرة (SPHP) أو(HPPD) هي حالة يمكن أن تترك المريض في حالة هلوسة تدوم لفترة زمنية غير معروفة، ويمكن أن تستمر لأشهر أو سنوات وبالنسبة لآخرين قد تستمر مدى الحياة، وحتى الآن لم يُعرف لتلك المتلازمة مسببات رئيسية ولكن رجح الأطباء أن تناول العقاقير المهلوسة لفترات طويله قد يؤدى للإصابة بها، وحتى الآن لم يتمكن الأطباء من إيجاد علاج لتلك المتلازمة، ويرجع هذا لندرة حدوثها وقِلة العلماء الذين يبحثون عن علاج لها، المرجع:

الأبحاث العلمية للطبيب "Henry David Abraham" بجامعه Tufts" " في عام ٢٠٠٨ حول hallucinogen persisting perception disorder (HPPD)

كما قال الفيلسوف بوزما في المقال خاصته "حاولت أن أجعل الوهم يتسرب في ضباب النفس"، فعلى غرار محاولة الطبيب بريمان بالتلاعب بعقل بروفيسور هادسون، حاولت أنا الآخر التلاعب بعقلك وخداعك للظن بأن تلك الرواية تنتمي للواقع بصلة وهذا ليس صائبًا، حيث أنه بخلاف ما تحتويه هوامش صفحات الرواية من حقائق، فأحداث القصة نفسها ما هي إلا من نسيج خيالي نسجته وسط بقية الأنسجة الحقيقية الأخرى للأمور داخل عقلك، والهدف من ذلك هو إثارة الشك بداخلك حول واقعية أحداث الرواية من عدمها طوال الوقت، فإن استطعت تحقيق ذلك الأمر ولو بنسبة ضئيلة فسوف أكون الرابح، والحقيقة أني لا أدري لماذا فعلت ذلك، فربما كنت أتشابه مع الطبيب بريمان في أمرٍ واحد، وهو أن كلانا كان يسعى لأن يكون هو العبقري الشرير.

النهاية

بقلم: هيثم موسى

تم تسجيل حقوق الملكية الفكرية للمؤلف عن الرواية برقم إيداع

٢٠٢١/١٠٢٢

كواليس الرواية

- فكرة الرواية كانت في الأصل ذات توجه خيالي بحت عن رجل يصنع مصل يُمّكنه من التحول إلي مسخ قوي يدافع عن البشر ضد شياطين العوالم الأخرى، ولكن تبلورت في عقلي لتخرج بهذا الهجين الأدبي الذي حاولت جاهدًا الحفاظ على سياقه حتى لا يندرج تحت ظلال نوعٍ أدبي واحد.

- استلزم كتابة الرواية عدة أشهر متواصلة من الدراسة للعديد من المراجع في علومٍ شَتَّى، ومحاولة مزجهم في قالبٍ واحد لتخرج في النهاية بهذا الشكل.

- اعتدت دائمًا في كتاباتي أن أترك قطعة من نفسي داخل كل منها، وعلى غرار الرواية السابقة، فإن ما يعاني منه القس جوناس من أعراض للوسواس

القهري هي نفس الأعراض التي أعاني منها، وذلك بعد أن فوجئت في بداية كتابتي للرواية ودراستي للأمراض النفسية بأن لدي أنا الآخر أعراض مرض الوسواس القهري.

- كان الهدف من تصميم الغلاف الأمامي للرواية هو محاولة إضفاء الواقعية على المحتوى الخاص بالرواية ولذلك وقع الاختيار على تمثال "lucifer morning star" والذي قام بتصميمة النحات الشهير

"Paul fryer" والمتواجد في كنيسة "the Holy Trinity church" بانجلترا، لمقاربة الوصول لمنطقية الفكرة المطروحة في ذهن القارئ عن طريق الإيحاء البصري.

- في النهاية، أرجو أن تكون رحلتكم خلال صفحات روايتي قد نالت استحسانكم، وإلي اللقاء في روايات أخرى.

تحية وإجلال

شكر وتقدير خاص للواء طبيب/ محمد رضا الفقي، أستاذ الطب النفسي والأعصاب بالأكاديمية الطبية العسكرية على مشورته العلمية، وعلى سعة صدره في شرح الكثير من الأمراض المذكورة في الرواية، وقد أدركت في نهاية الأمر أن جميعنا لدينا بعض الأعطاب النفسية، ولكن على المستوى المقبول لا أكثر.

الفهرس

الفصل الأول	١١
الفصل الثاني	٤٩
الفصل الثالث	٨٩
الفصل الرابع	١١٣
الفصل الخامس	١٤٣
الفصل السادس	١٦٧
الفصل السابع	١٨٩
الفصل الثامن	٢٠١
الفصل التاسع	٢٠٥

الفصل العاشر ٢١٧

الفصل الحادي عشر ٢٢٩

الفصل الثاني عشر ٢٤٥

الفصل الثالث عشر ٢٦٧

الفصل الأربعة عشر ٢٧٧